

حَكي قرايا وحَكي سَرايا



الأدب الشعبي ٣

أدب الناس للناس

سلام الراسي

حكي قرايا وحكي سرايا

أضواء على أقوال وأفكار العامة في لبنان

توزيع
معرض الشوف الدائم للكتاب
☎ ٥٠٧٥٧٦ - ٠٥



مؤسسة نوفل ش.م.م

بيروت . لبنان

الطبعة الثامنة
١٩٩٩



٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١) ٣٥٣٥٠٨ (٠٣)

مقدمة الطبعة الخامسة

سُئل اعرابيّ: «أي ابنائك أحبّ إليك». قال: «غائبهم حتى يحضر ومريضهم حتى يبرأ وصغيرهم حتى يكبر». كتابي هذا هو أشهر كتبي اسماً وأصغرها حجماً... حتى يكبر. لذلك اضفت إليه، في طبعته الخامسة هذه قسماً جديداً «من كعب الدست»، مع إعادة تبويب وتصويب بعض الأقسام الأخرى، والله حسبي ونعم الوكيل.

مقدمة الطبعة الثانية

في ظنّي أننا لا نستطيع معرفة شخصيَّة لبنان الحقيقية إلاّ من خلال درس شخصيَّته القروية.

ففي حكايات العامَّة من اللبنانيين، وفي حِكمهم وأمثالهم واصطلاحات أقوالهم تكمن مقومات حضارة لبنانية متكاملة بعفويتها وعراقتها وجمال مفاهيمها.

في كتابي هذا مجموعة من مكتوباتي في هذا الموضوع نشرت الطبعة الأولى منه في البرازيل، قبيل نهاية سنة ١٩٧٦. وأنا أُعيد الآن طبع الكتاب في بيروت، بعد تنسيقه وتعزيزه بِصُوَر جديدة.

ولا بد من الإشارة إلى أن أكثر هذه الصور الجديدة منتخبة من مجموعة الدكتور رئيف ناصيف الفنِّية، باعتبارها تمثِّل الشخصيَّة اللبنانية الأصيلة، من مختلف الفئات، ولا علاقة لهذه الصُوَر، أو لأصحابها بمضمون الأقوال أو الأحداث المذكورة في الكتاب.

مقدمة الطبعة الأولى

يستعمل عامَّة الناس في أَحاديثهم، كلاماً غير الذي يستعمله الخاصَّة من رجال العلم والفكر والسياسة. لذلك قيل: حَكي قَرايا وحَكي سرايا.

وكما يوجد عند الخاصَّة أُدباء وعلماء ورجال فكر، كذلك يوجد عند العامَّة محدِّثون ورواة وأَصحاب كلمة تعبق أقوالهم بجمال الفكر والحكمة والأَدب.

في هذا الكتاب محاولة لإلقاء الأضواء على جمال أَفكار وأَقوال عامَّة الناس في لبنان.

القسم الأول

أُدَبُ العَامّة في لبنان

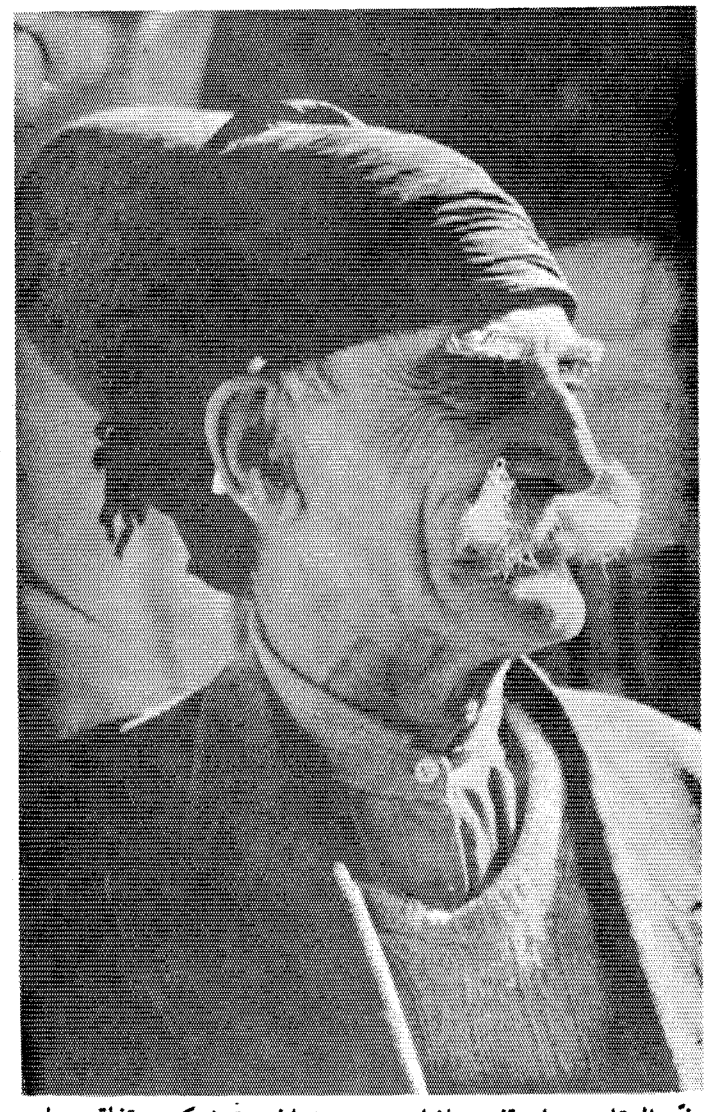


أَدبُ العامة أُدبُ الإنسان

قلما سمعتُ مُتحدِّثاً قروياً يتغزَّل بأشعة الشمس الذهبية، أو يتغنَّى بجمال الفراشات والطيور والأزهار والكواكب والغيوم والأشجار وما أشبه ذلك من الأشياء الجميلة الجامدة المألوفة.

لكنه إذا تحدَّث في مواضيع إنسانية وحياتية، كالمرجلة والمروءَة والتعزية والحكمة، ورأي الرجل في المرأة، أو في الحكومة مثلاً، فإنه يستعمل عندئذٍ أجمل العبارات وينتقي أفخم الكلمات.

وإذا افتقر أَدب عامَّة الناس إلى أَوصاف جمال الأشياء الجامدة، فإنه، ولا شكّ، يزخر بأَوصاف جمال المواقف والمفاهيم والأقوال والقِيَم والأفكار، وكل ما له علاقة بالإنسان.



رفّ العِقاب وما وقف عاشاربو خـايف تِيتشنكح بقفلة حـاجبو

حكي قرايا وحكي سرايا

من مرويّات الشيخ يوسف زخريا، محافظ الجنوب الأسبق، أنه كلّف أحد مفتّشي المعارف درس إمكانية فتح مدرسة في إحدى قرى الجنوب.

فذهب المفتش واجتمع بأهل القرية وأخبرهم أن الحكومة قررت أن تفتح في قريتهم مدرسة رسمية مختلطة.

فسألوه: شو يعني «مختلطة»؟.

قال: يعني بينخلطو الصبيان والبنات سوا.

فانكمش الحاضرون قليلاً إلى أن قال أحد رجال القرية: العلّه، نحنا جماعه، فهماتنا شغل ديّاتنا، مِنخاف الساعور ينطح القرقور... ويفلت الملَقّ... وتَعوا شُوفوا على مين الحقّ؟ الحق على اللي ربط القرقور حَدّ الساعور...

فلم يفطن المفتش ـ المتخرّج حديثاً من إحدى جامعات فرنسا ـ إلى مضمون كلام الرجل، وقاطعه: منحكي بالعلم، بتصيروا تحكوا بالمعزى، مش لازملكم مدارس... خلّي فهماتكم شغل ديّاتكم.

ورجع المفتش وقدّم تقريراً في غير مصلحة أهل القرية.

وبعد مدّة استدعى المحافظ مختار القرية وسأله عما حدث، قال: المشكل، سيدنا، إنكم نسيتوا حكي القرايا، قبل ما تعلّمونا حكي السرايا، لذلك، صار الراعي بوادي والرعيّه بوادي، ما حدا فهمان عا حدا... يا بترجعوا تحكوا حكي قرايا، يا بِتعلّمونا نحكي حكي السرايا، يمّا إنتو بحالكم ونحنا بحالنا.

إن شِفْت الفقير معجوق قُول الغني مسخّرو

في سوق «النبطيّه» سمعت رجلاً يسأل رجلاً آخر: شو قصتو ابنك موسى معجوق، من الصبح رايح جاي؟.

أجاب الرجل: ابني مكلّف من قِبَل جماعة الليسته، بتوزيع البطاقات، الله وكيلك صرلو يومين مثل ما قال المثل: قَطِّع نعلك شي ما ضاع لك.

فقال رجل كان يجلس جانباً: يا بو موسى، الشيخ عبَّاس كان يقول: إن شفت الفقير معجوق، قُول الغني مسخّرو.

مَافي جُود إلاّ من المَوجُود

المعلم اندراوس إسكاف عتيق متقـاعد، نـاصت عيناه وصَوفَن شارباه وحَفيت هامته، فمن كثرة استعمال عقله هرّ شعر رأسه ـ هكذا يقول المعلم اندراوس عن نفسه.

عاتبني يوماً لأنني استأجرت شقَّة غالية، قـال: قَولِب حياتك حسب مصريّاتك.

هكذا ما زال عقل المعلم اندراوس داقراً عند قوالب الأحذية يستعملها في قولبة عباراته ومسمرة كلماته.

ويتعمق المعلم اندراوس في شرح مفهوم علاقـة المرأة بالرجل، فيتهم أحد القدّيسين بأنه قال: كما تلتصق الفرعة بالنعل، هكذا تلتصق المرأة بزوجها.

ويستطرد أخونا الاسكاف العتيق: وكما يهترىء النعل قبل الفرعة، بسبب كثرة الاحتكاك، هكذا يهترىء الرجل ويموت قبل زوجته.

وعندما يتحدّث المعلم اندراوس عن امرأة ترمّلت حديثاً،

يقول: هَرَت نعلها. فإذا سمع عن رجل كهل تزوج امرأة شابَّة قال: بكره بتركّبلو نص نعل، وفهمكم كفايه.

في أحد الأيام سمعت المعلم اندراوس ينصح ابن أخته بأن لا يتزوج إلا فتاة قويَّة الجسم متينة البنية، قال: يا ابني، المرا مثل الصرمايه، بتهتري عالاستعمال، جيبها من الأول ماكنه وقويّه، بتضاين معك لآخرتك.

إبن حكومة، بَسّ إبْن أَوادِم!

من أطرف ما حدث معي، خلال عملي في وظائف الدولة، أن رجلاً من جبل عامل دخل مكتبي وسأل عن معاملة تخصّه، ولم تكن المعاملة عندي، ولم يكن إنجازها من اختصاصي، مع ذلك، وبسبب حساسيتي نحو أبناء منطقتي - جبل عامل - خرجت أبحث عن المعاملة، فوجدتها نائمة في أدراج أحد زملائي، وانصرفت إلى درسها وانجازها.

وعندما ودّعني الرجل، شكرني بحرارة، وقال بعفويّة وبراءة: صحيح إنك ابن حكومه، بس هيئتك ابن أوادم!.

لوِّثْ خنجرك ولا تلوِّثْ لسانك

في «خريبة الشوف» توقَّفنا أمام مشاجرة سقط فيها بعض الجرحى، وكان المتشاجرون ينتخون ويتمهيصون، لكننا لاحظنا أنهم لم يستعملوا في شجارهم أية عبارة شائنة.

وعند عودتنا إلى بيروت، توقَّفنا أمام سائقين يتشاتمان، فيهدّد الواحد أن يفعل ويسوّي في أُم الآخر ـ وهو جالس في سيارته ـ ثم يمضي كل واحد في سبيله، دون أن يفعل شيئاً، فقال رفيقي: صَدَق مَن قال: اللي ما بيعرف طعمة تِمُّو، ما بيسأل عن شرف أُمو.

* * *

ومن أَخبار القاضي السابق نصري نصَّار، أنه كان يحقق في إِحدى الجرائم، فقال المدّعي إن المدعَى عليه طعنه في خاصرته وقال له: يا ابن الفاعله الصانعه، بدّي إدعس رقبتك.

فسأل القاضي، المدعى عليه، لماذا طعن المدعي وشتم أمّه، فقال: القضيه، سيدنا، على ثلاث طوق:

ـ أول طاق: لكزتو بالخنجر، هذا صحيح، بس ما طعنتو، لو طعنتو كنت قتلتو!.

ـ ثاني طاق: كنت ناوي إدعسلو رقبتو، هذا كمان صحيح، بس ما جافص معي، لو جافص معي كنت دعستلو رقبتو.

ـ ثالث طاق: أنا ما شقّعتلو، ولا ممكن شقّعلو، لأن المرحوم جدّي كان يوصّيني: إذا انحوجت لَوِّث خنجرك ولا تلوِّث لسانك.

وصِل الخَبَر لَبُوطَبَر

التقى في مكتبي رجلان. وبعد أن صافح أَحدهما الآخر، قال: شو قصّتو صاحبنا؟ بعد الكَبرا جِبّه حمرا؟

فقال الرجل الآخر: معلومك، صاحبنا كل عمرو عينو ابرّا، وجارتو موضوع قابل... وجوزها يا غافل إلك الله... بس سلفتها حندوقة عينها، بالتالي اشتلقت، ووصل الخبر لبو طَبَر واللي ما دري يدري.

الناس مع الواقف

جاري «أبو شاكر»، دائماً «مع الواقف».

سألته يوماً عن حكمته في الحياة، فقال:

يُحكى أن السبع، ملك الوحوش، أدركته الشيخوخة، فغشّى بصره وشحّ نظره. فقبع في عرينه، رهن وساوسه وشجونه، فأقبل الثعلب يزوره وأقعى قرب الباب مترحرحاً غير هيّاب، ومدّ حديثاً، قال:

ـ قالت الحكماء: «إذا شحّت الأبصار، عليكم بلحم الحمار! إنه يجلب العافية، ويُنير الأعين الغاشية، ويشدّد الركب المتراخية». وقد عاينت في طريقي إليكم الآن، حماراً سميناً متعافياً، يرعى في مكان قريب، فإن راق لكم الأمر رافقتكم إليه، فتنعمون بقلبه. ولسانه ودماغه، وهي خلاصة الخلاصات لإطالة الحياة، وتتركون الفضلات لعبدكم الثعلب، تعويضاً لي عن إخلاصي لكم في أحرج الأوقات.

فلملم السبع ما تبقى من عزيمته ونهض ومشى إلى جانب الثعلب الذي راح يتملّق: «سلامة نظرك سيدي السبع! أنا

فداك سيدي السبع! حيّاك الله وبياك يا ملك الوحوش!».

وعندما وصلا إلى حيث كان الحمار، تبرع الثعلب بنصيحة إلى السبع، قال: «من الحكمة أن تأتيه من الوراء، فتأخذه على حين غفلة».

لكن الحمار، هذه المرة، لم يكن غافلاً، فتناول السبع برفسة على صدغه، وأُخرى تحت أذنه، فترنّح الأسد وسقط على الأرض مغشيّاً عليه. وعندما بدأ يستعيد أنفاسه، سمع الثعلب يقول: «صباح الخير يا سيدي الحمار!... لا شُلَّت يمينك يا ابن أتان!... أيد الله عزّك أيها الجحش العظيم، يا صاحب الصوت الرخيم، والعقل السليم، والظهر القويم، والذيل الطويل المستقيم»!.

فانتفض السبع، وصاح: «وما هذا التبجيل والتفخيم».

أجاب الثعلب: «الناس مع الواقف، إلى أن تنجليَ المواقف»!.

فصار جواب الثعلب من الأقوال المأثورة، إلى يومنا هذا.

المهمّ أن تقتنع الدّجاجة!

الحاج سعد الدين ليس له رأي في ما يجري حوله من أحداث. فشلت جميع قناعاته في حياته، فإذا حاولت أن تقدِّم إليه أية قناعة جديدة، قال: «المهمّ! أن تقتنع الدجاجة»! ثم يضرب لنا مثلاً.

ـ حُكي أن رجلاً أصابته لوثة في عقله، فظنَّ نفسه حبَّة قمح. وفكَّر ملياً في الأمر، قال: «أنا حبَّة قمح، هذا أكيد، وحبَّة القمح تأكلها الدجاجة، وهذا أيضاً أكيد... إذن أية دجاجة وجدتني أكلتني».

وانزوى الرجل في بيته، فاجتمع أصدقاؤه حوله، وقالوا له: «أنت تتكلم وتمشي وتأكل وتنام وتعرف مَن نحن فهل رأيت في زمانك حبّة قمح تفعل هكذا».

ففكَّر الرجل قليلاً، ثم أذعن وقال: «صحيح! وين كانوا عقلاتي، الحق معكم أنا رجل ولست حبّة قمح».

فشكروا الله لأنه هداه، وخرجوا فخرج معهم مشيِّعاً.

لكنه لم يصل إلى الباب حتى صرخ: «دجاجة، دجاجة» وهرب إلى الداخل، فتبعوه، وقالوا: «إنَّا أقنعناك فاقتنعت أنك لست حبة قمح، فلماذا خفت من الدجاجة؟».

قال: «من جهتي! اقتنعت... لكن أرجوكم أن تقنعوا الدجاجة».

يا مَا ناسٌ مَاتت بالغَلَطْ

ويضرب لنا، جاري الآخر «أبو سلوم»، مثلاً آخر، قال:

يُحكى أن ثعلباً كان متوجهاً إلى المدينة، فالتقى رجلاً وسأله عن الحالة، قال الرجل إن حرس المدينة يقومون بمصادرة الحمير، لنقل القمح والشعير إلى اسطنبول.

فقفل الثعلب راجعاً.

فسأله الرجل عن سبب رجوعه. مع أن المصادرة هي للحمير لا للثعالب.

قال الثعلب: «أخاف إن أنا دخلت المدينة أن يأخذوني بالغلط... وإلى أن يتم تعريب الثعالب من الحمير، أكون قد مُتُّ من الخبيط... أو من اللبيط».

ويضيف الأخ أبو سلوم: «يا عمي! يا ما ناس ماتت بالغلط».

كلّ مصّة بغصّة

عاش في قريتي رجل حكيم عليم اسمه «أبو يوسف» وعاشت أقواله المأثورة، بعد موته، وقتاً طويلاً، على شفاه الناس، وما زالوا يستشهدون بها في شتّى مناسباتهم.

في مجلس عام تبرّع أبو يوسف بنصيحة إلى شاب قيل إنه كان يتردد على امرأة مشبوهة، فقال: «لعنة الله على المذكورة... المرا العاطلة، يا ابني! مثل الثوم: طعمتها مليحه... بَس ريحتها فضيحه».

وفي معرض حديثه عن النساء كان يقول: «الواحد مِنّا بيفتكر كل النسوان أحسن وأفهم من حرمتو. بَس الحقيقه، كل جنس النسا واحد... النسوان، يا إخوان! مثل السفرجل: كل مصّه بغَصَّة».

وإذ كان يجد قبولاً لكلامه عن النساء، بين الرجال، كان أبو يوسف يضيف: المرا، يا إخوان! مثل ما قال عنها الشيخ بو علي مسعود: «تحمَّل بَلاها... يمّا بَلاها!».

سمعته يوماً يقول: «الله يجيرنا من المرا المعتدّه...

والمرتدّه. . . ووشواشة المخدّه».

فقلت: «المعتدّة. . . فهمنا، والمرتدّة. . . الله لا يردّها، لكن مَن هي وشواشة المخدّة؟» قال: «بنت الحرام، اللي لا بتنام، ولا بتخلّي زوجها ينام!».

إنت رِحتْ مِن بَالي

المعلم مهنا، قهوجي مديرية المباني، لا يهتم غالباً بالكلام الجميل المنمّق ولا تتيح له ظروف عمله تداول الأحاديث وتبادل المجاملات.

أوصيته يوماً على فنجان قهوة فراح ولم يعد. وبعد ساعة لمحته يحمل فنجان قهوة إلى زميل لي، في غرفة مجاورة، فناديته: أين قهوتي يا مهنّا؟ هل نسيتني؟.

فحكّ جبينه برهةً، ثم قال: لا والله، أنا ما نسيتك، بس إنت رِحت من بالي.

مِن قِلّة الرِّجال، سَمّوا الدّيك "بُوقاسم"

الحاج رضا عامص، «يُعين ولا يستعين»... إلاَّ بالله المستعان ـ على حدّ قولـه ـ سألتـه عن حجّته في حكمتـه، فضرب لي مثلاً: ـ بعدما خلق الله الخليقة، أراد تنظيم مملكة الطيور، فوجّه سيدنا «جبرائيل»، عليه السلام، تعميماً على ذوات الأجنحة، للحضور، لانتخاب أركان دولتهم.

وبلغ الخبر مسامع «الديك»، فنهض واستنهض حاشيته المؤلفة من إثنتين وثلاثين دجاجة، بينهنَّ الرقطاء والـطوزاء والمشرولة والمسملقة وأم قاق وأم قراق، وغيرهنَّ من الخليلات العتاق. ومشى أمامهنَّ، مختالاً، يتلفّت إليهنَّ ويستعرضهنَّ من وقت إلى آخر.

وكبر أخونا الديك في عين نفسه، وقال:

ـ «النسر» هو أعظم الطيور، ولا يجوز أن أنافسه على سدّة الملك، حتى لا يحدث انشقاق في المملكة، أما الإمارة، فهي كـذلك، من حق إبن خـالتي «الباز». تبقى مشيخـة الطيور، ولا يوجد مَن هو أحقّ مني بها.

وهنّأَ الديك نفسه سلفاً، وقال: «قبل أن تغيب شمس هذا النهار، سيصير إسمي الشيخ بو قاسم الديك» [1].

وراح الشيخ «بو قاسم» يتبرّع بالألقاب الكريمة على حاشيته العظيمة، هذي شيخة، وهذي شويخة، وهذي فرخة، وهذي فريخة...

فدبَّ الحماس في حناجر الشويخات والفريخات، فانتظمنَ في صفوف وحلقات، وأخذنَ بالحداء:

«يا شيخ بو قاسم، يدوم العزّ».

«القمح المصَوَّل، فضلتك، والرزّ».

* * *

وحدث أن هرّاً حصيفاً من أصحاب الكرامات، كان قائماً للصلاة، في أحد المنعطفات، فتخدّشت أذناه وتشوّشت تقواه من تنافر الأصوات، وعدم انسجام الوقوقة مع القوقأة، وبسبب رطانة الإيقاع، وركاكة التلحين والإبداع، فتحلفص وتقعلص وتجمهر وتزمهر، فتفعفر موكب الدجاج في الوعور والفجاج.

فاستعاذ أخونا الديك، واستعان، وتلفّت فوجد نفسه

---

(١) توجد حكاية أخرى عن سبب تسمية «الديك أبو قاسم» وهي منشورة في كتاب «حيص بيص».

وحيداً في المعمعان، ثم جمع ساقيه، وقفقف جانحيه، وتنفّض، وصاح: «يا سامعين الصوت، أنا الشيخ بو قاسم الديك... يا شيخه، يا شويخه، يا فرخه، يا فريخه...» ولا مَن يسمع ولا من يجيب.

وصدف أنَّ بومةً عتيقةً كانت تقضي عطلتها في قرقارة شجرة زيتون قريبة، وسمعت وقشعت، فهتفت: «يا شيخ بو قاسم الديك، شيخه، وشويخه، وفرخه وفريخه،... لشو هالدُّوَّيخه؟ عند الضيق، لا رفيق ولا صديق!».

فجرى كلام البومة قولاً مأثوراً إلى يومنا هذا.

الرمح ما بيتخبّا بالعديلة

في ساحة «شبعا» وقفتُ أمام باب دكّان أسأل عن رجل من أبناء البلدة، فقال شاب: شو بتريد مِنُّو؟..

فانتهره أَحد الشيوخ من الداخل: يا محمود... الرمح ما بيتخبَّا بالعديله، إذا كنت بتعرف وينو قُول وَينو، نحنا ما تعوّدنا نخبِّي رجالنا من وجوه الناس.

لا سلام ولا كلام

يُحكى أن فلاّحاً كان عنده حقل مزروع بطّيخاً وكان ابنه معه في الحقل، فمرّت جماعة من البدو وحَيَّت. فلم يرد الفلاح التحية.

فسأله ابنه: السلام لله، فلماذا لم تردّ التحية بمثلها؟.

قال: بخاف السلام يجرّ كلام، والكلام يجرّ بطيخ.

حَسَب السُّوق مِنسُوق!

في إحدى القرى، معلم مدرسة ترك وظيفته ولبس ثوب الكهنوت وصار «خوري رعيّه». وعندما سُئل كيف يبرّر عمله، قال:

ـ بعدو مار شلّيطا أعظم من بسمارك، ومار روكز أفهم من أديسون، وبعدو مار جرجس بيمعط نابليون كل يوم قتله بساحة ضيعتنا.

واستطرد: ونحن حسب السوق مِنسوق!.

اللّي بيدْري بيدْري
وَاللّي مـَا بيدْري بيقوُل كفّ عَدسْ

لنا زميل، كالازميل، كلماته حفر وتنزيل، «نتحركش» به أحياناً بخبر مثير أو بسؤال من نوع «لزوم ما لا يلزم» فيجيب بأسلوب محكّم، يكون غالباً مثلاً من الأمثال الشعبية لا أجمل ولا أحكم.

لكن مَثَله المفضَّل في المواقف المحرجة كان وما زال «اللي بيدري بيدري واللي ما بيدري بيقول كف عدس».

ويُضيف زميلنا هذا كلما رجع مرجوعه إلى مَثَله المفضَّل: «وهذا ما يحدث غالباً، يسكت من يدري، ويتكلّم من لا يدري ليؤكِّد ويجزم ويحسم أن القضيَّة هي قضيَّة كف عدس»، لا أكثر ولا أقل.

وسألناه أخيراً: «وإذا لم تكن القضيَّة قضيَّة «كف عدس ، فماذا عساها تكون؟». قال:

ـ كان لفلّاح ابنة صبيَّة، وكانت تعاونه يوماً في «تذرية» العدس على البيدر. إلا أنه اضطر إلى أن يذهب لقضاء

إحدى الحاجات، وعندما رجع وجد ابنته في وضع مريب مع شاب غريب وراء عرمة العدس.

فثار الفلاح وأخذته الحميّة وهجم على الشاب الذي ولّى هارباً أمامه إلى حيث كانت جماعة من الرجال تدخّلوا لفضّ الخلاف وسألوا الشاب فأجاب أنه أخذ كفّاً من العدس ـ أي حفنة من العدس ـ من بيدر الرجل فهجم عليه يريد قتله من أجل «كف عدس».

فصاح الجماعة بالفلاح: «ويحك يا رجل! أتريد أن تقتل الشاب من أجل كف عدس»! فاستدرك الفلاح وأدرك حالاً أنه ليس من مصلحته ومصلحة ابنته أن يعرفوا الحقيقة وقال: «صحيح! وين كانوا عقلاتي... روح يا ابني الله يسامحك بكف العدس».

وانتقلت قضيَّة «كف العدس» إلى دواوين القال والقيل: كيف حاول الفلاح أبو فلان وهو رجل راجح العقل أن يقتل شابّاً من أجل كف عدس!!!

بيد أن رجلاً واحداً من أهل القرية كان قد رأى، من بعيد، ما حدث وراء عرمة العدس، ولأن كتمان السرّ من صفات أهل الشرف اكتفى بالقول: «اللي بيدري بيدري، واللي ما بيدري بيقول كف عدس».

وجرى كلامه مجرى الأمثال إلى يومنا هذا.

أَلفُ قَوْلة «آخ»

تزوّجتْ إحدى الفتيات، فزوّدتها والدتها، قبيل انتقالها إلى بيت زوجها، بنصيحة:

- «يا بنتي، لا تكوني غشيمه، «المرا الغشيمه بتمرق الميّ تحتها»، حاولي دائماً أن تعرفي أسرار زوجك حتى تطول أيّامك عنده».

ولم يلبث الرجل أن اشتلق على اهتمام زوجته بمعرفة أسراره، فأضمر شيئاً في نفسه، وبحث عن موكرة دبابير، واستحضر نعارة فخار دهنها من الداخل بالدبس وحملها ووضعها بالقرب من المدبرة، فدخلت إليها شرذمة من الدبابير. عندئذ سدّ الرجل باب النعارة وربطه ربطاً محكماً وجاء بالنعارة إلى بيته.

فسألته زوجته عمّا في النعارة.

قال: «فيها «آخ» و«آه» ويا أمي ارحميني».

فهزّت رأسها وقالت في نفسها: «بعدو مفتكرني غشيمه».

وانتظرت المرأة حتى خرج زوجها، وتقدمت وفتحت

النعارة، وانحنت لترى ما في داخلها، فثارت الدبابير في وجهها:

ولطشها دبور في أنفها،
ونهشها آخر في خدها،
ونتشها ثالث في جفنها،
وعفشها رابع في حنكها،
وكدشها خامس في شفتها،
وقرشها سادس في قرقوشة أذنها.

وبعد حين رجع الرجل، وسمع زوجته تصيح: «آخ يا عيني.. آه يا منخاري...».

فصاح بها: «ووين رحتي بيا أمي ارحميني؟».
قالت: «ألف «آخ» و«آه» ولا قولة غشيمه!».

القسم الثاني

المرأة مرآة الرجل



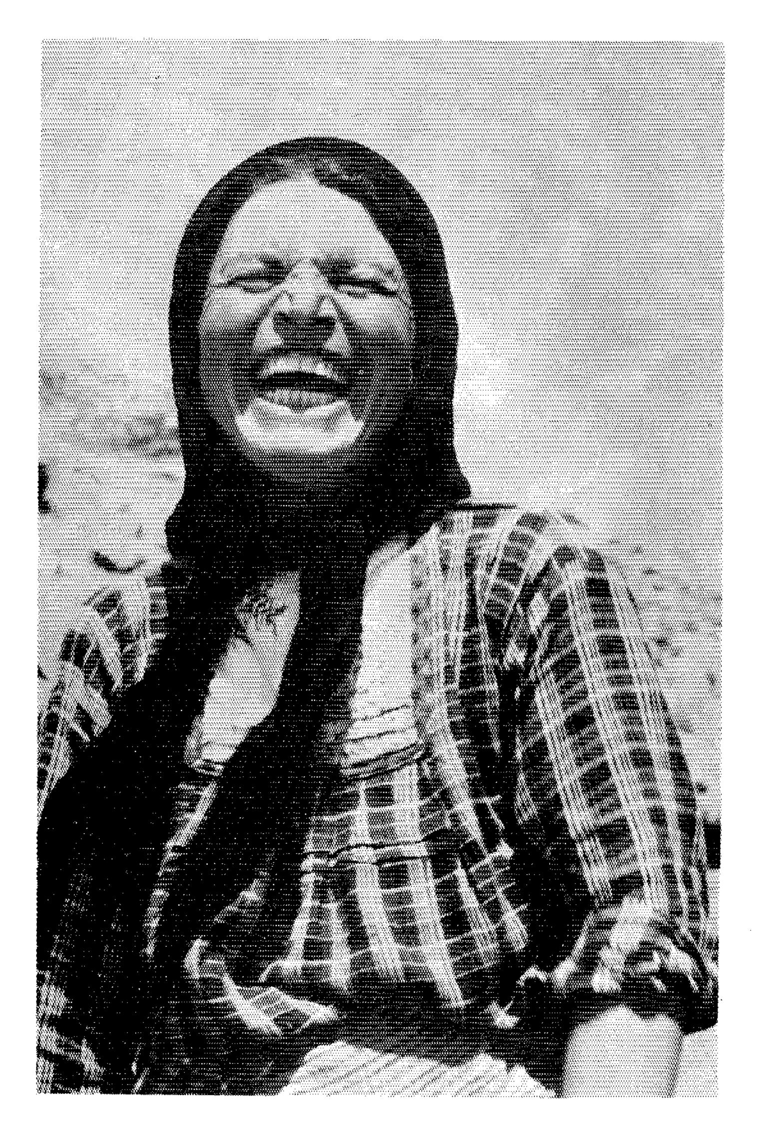
المرأة في أدب العامة

المرأَة أَهم هموم الرجل. وهي شغله الشاغل.

وكما عند أدباء الخاصة، كذلك، عند أدباء العامة. أقوال في المرأة، وعن المرأة، تملأ عدّة كتب.

ومنذ أكلت حواء من الثمرة المحرّمة، وأطعمت جدّنا آدم، عليه السلام، صارت المرأة، في نظر الرجل، مسؤولة عن أكثر الهموم والمتاعب.

وهذا ما يتمثل، بجلاء، في أدب العامة، بالنظر لعفويته وأصالته.



الكذب ملح الرجال

فلسفة فهم طبائع النّساء

يقول سلامة موسى، في مقال نشره في مجلة المقتطف، إن الإنسان قد يكون فيلسوفاً بدون علم، وقد يتعلّم كثيراً ولا يصير فيلسوفاً.

فإذا صحَّ هذا القول يكون جاري أبو جميل من فلاسفة هذا الزمان، فهو ـ بالإضافة إلى كونه غير متعلّم ـ غشيم في جميع شؤون الدنيا، لكنه فيلسوف في فهم طبائع النساء.

فَمِن كثرة ما تقرقح في متارسة طبائع زوجته، صار يفهم عليها بالإشارة: إن هي رمشت أو تنحنحت أو سكتمت أو بربست أو غمغمت أو مغمغت أو برطمت أو زنقرت أو شفترت أو تنحرت أو قنفعت حاجبيها أو قوفعت ساقيها على ركبتيها... وتزمهرت.

سمعته يوماً ينادي ابنته عن الطريق: يا سعاد، قولي لأمّك إني رجعت من طرابلس، بس نسيت جيب السكربينه من عند أمها، أنا رايح لعند أختي، وبعد ساعتين راجع عالبيت.

فقلت له: ولماذا تريد من الآن أن تكدّر خاطر أم جميل بهذه الخبريّة ما دامك راجع بعد ساعتين؟

قال: منشان تحمى وتبرد قبل ما إرجع.

ويشرح أبو جميل مضمون فلسفته في النساء، فيقول إن النساء تحب المماحكة، فإذا أردت أن تجادل زوجتك في أمرٍ ما راحت تماحك فيك أسبوعاً على ريق بطنها: بدّك ترتاح مع مرتك، حركشها حتى تحمى واتركها حتى تبرد منها لحالها.

المرا مرارة: يا غشيمة، يا قهّارة

ذهبنا يوماً، نخطب يدّ فتاة، لأحد الأصدقاء، فأَراد والدها، من قبيل اللياقة، أن يأخذ رأي زوجته، التي شاءت أن تتمعزز، وقالت: البنت بعدها زغيره، ملحوق على زواجها.

فاحمرّت عينا زوجها غضباً، وتراقص شارباه في وجهه، وقال: الحرمه، إذا زوجها اعتبرها وأخذ رأيها، لازم تقول: إنت صاحب الرأي، ومثل ما بتفصّل منلبس.

وأضاف الرجل: قدّيش صار لي بعلّم هالمخلوقه تحكي حكي كبير بعدها بتحكي حكي زغير... يرحم بي مَن قال: المرا مراره: يا غشيمه، يا قهّاره.

المحروس بدّو عروس!

يقال إن اللبنانيين هم الذين ابتكروا أكل اللبنة بالزيت، مع خبز الصاج المرقوق. وكانت ربّة البيت، كل صباح، تلفّ لكل ولد من أولادها رغيفاً بلبنة ـ كانوا يسمّونه «عروس بلبنة» ـ وهو ترويقة الصباح لجميع الأولاد تقريباً. وتروي سيدة مرجعيونية قصة العروس بلبنة، قالت:

كان لرجل وامرأة ابن وحيد، بلغ الثالثة عشرة من عمره، وفي إحدى الليالي أرقت المرأة وفكرت في مستقبل وحيدها، قالت: يقبرني منصور صار شبّ ـ يخزي العين عنو ـ وصار لازم من اليوم بلّش دبّرلو عروس حلوه وعاقله وبنت حلال.

وبدأت أم منصور تستعرض صبايا القرية:

ـ سلمى بنت الجيران... طرطوقه.

ـ مريم بنت بو سمعان... حلوه، بس مجلوقه.

ـ حنّه بنت ابن عمي مخايل... الله يستر عليها.

ـ دلال بنت بو جريس... مثل القاق، سيقانها رقاق.

ـ بنات بو عزّوز... الأولى جلقا، والثانيه عينها بلقا، والثالثه طق شرش الحيا... نجّينا يا رب!

ـ أكابر بنت الحاج خطّار... صيت كبير، والمزرعة خربانه.

وكانت أم منصور، كلما أوشك زوجها أن ينام، لكشته وسألته، وأجابت نفسها بنفسها:

ـ بو منصور، شو رأيك ببنت بو قناتل؟... بس أمها شلعبونيه.

ـ بو منصور، شو قولك بجارتنا وديعه؟... لولا ما إخوتها شي تكتك شي تيعا.

ـ بو منصور، يمكن فكرك ببنت أختك جميله... المثل بيقول: إبعد عن الشر وغنّيلو.

ـ بو منصور، ليش ساكت؟ بنت خيّك بطرس؟... شوف، شوف، أنا مش مجبوره حط هالقمله بدقني.

وأكملت أم منصور، تلك الليلة، جولتها، على بنات القرية:

ـ هذي مسملقه وهذي مبحلقه، هذي مرعوطه وهذي قلعوطه، هذي جولاقه وهذي لقلاقه، هذي أهلها شلمصطيّه

وهذي حوستها مجرّيه، هذي بلا خصر مثل قطرميز مصر وهذي مثل البومه، مكبتله ومصرومه.

أخيراً أصبح الصباح ولم تجد أم منصور، بين بنات القرية، عروساً تليق بابنها، وفطنت إلى أن أهل القرية صاروا يقولون لها في كل مناسبة: «من فرحة المحروس». فأخذتها نشوة من الفرح ونهضت جالسة في فراشها، وقالت بصوت مرتفع: معلوم! بدهم يجوّزوا بناتهم، أنا مش مجبوره نفّق بنات الناس، بِكسُر الجرّه وبجيبها من برّه، واللي بدّو يصير يصير.

فاستيقظ عندئذٍ منصور وطلب من أمّه أن تلف له رغيفاً بلبنة، فقال لها أبو منصور: يا أمّ منصور، حساب الحقله شي وحساب البيدر شي، كل الليل تفتشيلو على عروس والصبي بدّو عروس بلبنه.

زَلَمتها عَلى طَبْطَاب كَيْفها

جاري الحانوتي «أبو عبيـد» كلما التقاني، حـدّثني عن أولاده: عندي هالصبي الزغير، صايرين عقلاتو مشوشرين من عِشرة ابن بو سالم اللي كل عمرو طلطميس، بس خَزاة العين عن ابن الحاج تامر، لو بِتحِلّ مداكشة الولاد، كنت بداكشو بالأربعه اللي عندي.

وينتقل أبو عبيد إلى الحديث عن أخته: قال: نشكـر الله، زلمتها على طبطاب كيفها، بس الله ما تممها معها. إبنها الكبير فهماتو عاقدّو، والثاني علماتو شكاره، والثالث عقلاتو بياخذوا وبيعطوا، والرابع مليح، بس مثل ما قال المثل: أكل ومرعى وقلّة صنعه.

لا تلزّو! واقِفْ عَاشْوَارْ

إذا كنت عاطلاً عن العمل وأَردت أن تتسلَّى مجاناً، عليك بمستشفى الجامعة الأميركية في بيروت. فأطيب قيلولة تكون في أحد صالوناته الرحبة، حيث تتفرّج على الناس من مختلف الأجناس لوجه الله.

فهنا سيدة فلسطينية متأمركة، وهناك سيد لبناني متأفرق، نصفه من جبل عامل ونصفه الآخر من السنغال.

وقرب أذني اليمنى امرأة تتلقمط، أغلب الظن أنها تعلك، وعن يساري رجل يطقطق بحبّات سبحته، فيحدث إيقاعاً متوازناً مع لقمطة المرأة.

وهؤلاء الرجال الثلاثة، لابسو الدشداشات البيضاء، يتكلمون كلاماً عربياً لم أفهم منه سوى إسم أحد المصارف وماركة إحدى السيارات المشهورة.

وذلك الشمحط يسند الحيط بظهره، كأنه حيط، إني أُقسم بشرف جارتي المتلقمطة أن هذا الرجل خرج من السجن منذ أسبوع، وأنه سيعود إليه اليوم.

وفي صدر القاعة، سيدة شقراء، ما برحت ترفع ساقاً على ساق، حتى ظهر الفارياق ـ بالإذن من روح أحمد فارس الشدياق.

وها هنا فتاة سمراء، لا تنفكّ تروح وتجيء، تارةً مقبلة، وتارةً مدبرة، وهي تلبس بنطلوناً ضيّقاً ملتصقاً بفخذيها المكوّرين ووركيها المتنافرين، بحيث يبدو ما بينهما قريباً وبعيداً في نفس الوقت، وصدق مَن قال إن بنطلون المرأة يُسَتِّر لكنه يُفَسِّر!

بيد أني ما جئت الآن، إلى هذا المكان، لأَجمع فرافيط المعاني، أو لأقبض هذه الفراطة من رخيص الكلام، بل جئت أعود صديقاً قُطعت رجله وجلست ها هنا، برهةً أُفكِّر في ما عسى أن أَقول مؤاسياً.

أول ما خطر في بالي بيت من الشعر أرسله أحد شعراء الجنوب إلى رشيد بك نخلة، عندما اقتطعت رجله في أواخر أيامه، قال:

ثَواءً، وقد وَفَّيتَ للمجـد حقّه
فَمِثْلُك مَن يُسعى إليه ولا يَسعى

لكنني تذكرت أن الرجل الذي جئت أعوده، لم يدفع في زمانه حق المجد، ولا حتى ثمن البرّاد الذي اشتراه بالتقسيط

منذ سنتين، ناهيك عن إجرة أربعة قداديس عن روح والده، إلى خوري الضيعة.

وعلى ذكر رشيد بك نخلة تذكّرت، كذلك مطلع قصيدة زجلية أرسلها إليه الشيخ علي الزين، لنفس المناسبة، قال:

يا بيك قلبي عليك مثل النار
والعين بصيره والأيادي قصار
والجيد ما بيستاهل العثره
لكن عثرات الجياد كثار

ثم فطنت إلى أن الرجل يكره ذكر البكوات والأفندية وكدت أعود من حيث أتيت، وإذا بباب المصعد ينشقّ عن خليط من بني آدم بينهم رجلان جهاميّان، الأول إفرنجي بَرّي يحمل بيده قضيب زعرور والثاني أَفندي عتيق من بقايا تركيا كان يتابع حديثاً بدأ به قبل أربع ساعات، قال:

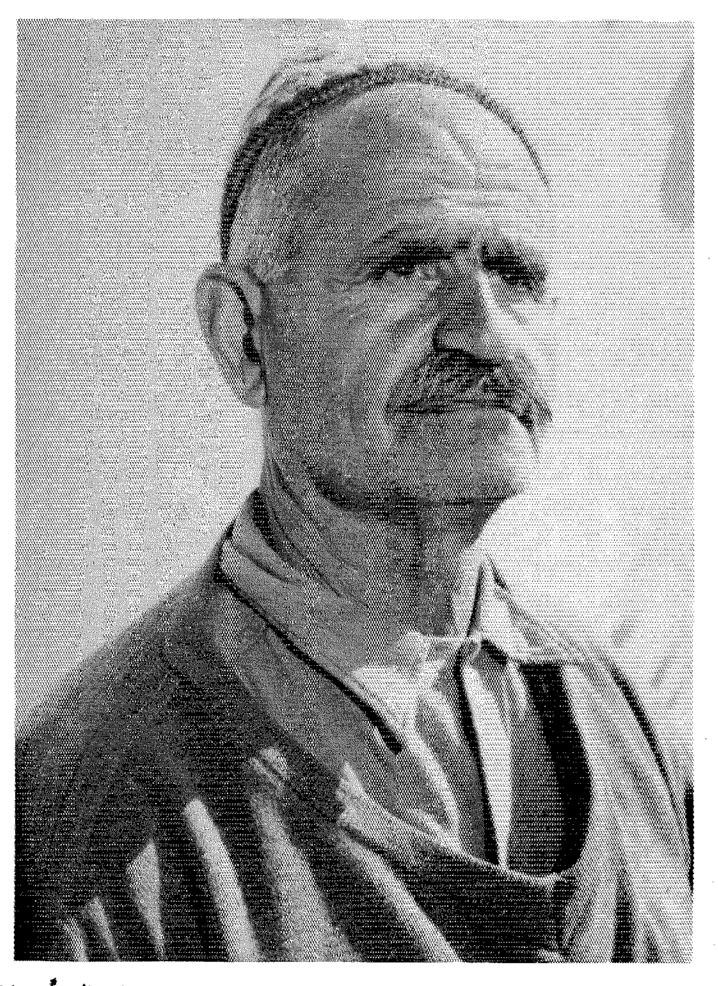
ـ بو ناصيف كثّر مطاليبو، كل مطلوب أصعب من مطلوب، قلنالو، يا عمي، كثر الشدّ بيرخي، هذا شب عقلاتو براس طربوشو، والمثل بيقول: «لا تلزّو، واقف عاشوار»، إذا نقز مين بيعود يحوشو. الخلاصة نقز وراح، ولزقت البنت بشوارب بيّها.

فقال صاحب قضيب الزعرور: «الحكي بيناتنا، الشب كان يعطي إذنو لأم سعيد، كل ما راح وإجا كانت توشوشو وشووشه».

فقال الأفندي: «بيجوز... أم سعيد بتعمل عمايلها، وبترخي شمايلها».

وانتبهت عندئذٍ إلى رجل من أبناء قريتي يتناول يدي مسلِّماً، وقد جاء لنفس الغاية التي جئت من أجلها، فاصطحبني إلى غرفة الرجل المبتور الرِّجل، حيث كانت زوجته تحيطه بالعناية وتحاول أن تخفف أوجاعه بحنان ودراية.

افتتح الحديث رفيقي، فقال: «صحيح! المرا إجر الزلمي» وأضاف: كان أسعد سقسوق من صناديد الرجال، وكانت كلمته مثل السيف، مرّةً سألوه: «إذا خيّروك بين موت مرتك وقطع إجرك، شو بتختار؟» قال: «إن ماتت مرتي بتكَرسح بس إذا انقطعت إجري بِتعَكَّز عامرتي»، والمثل بيقول: «المرا إجر الزلمي، والزلمي تاج راسها».



مدري من أيا مقلع بيجيبو حجار الصّوان
حتى من المقلع إقلع صخرة وسمّيها لبنان

لا تلومْ الغايبْ تا يحضَر!

فيما كان مختار إحدى قرى البقاع الغربي، يحاول أن يروي لي قصة إحدى عجائز قريته، ليطلعني على حالتها الاجتماعية، قال:

ـ انكسرت تركيا سنة الثمانطعش وتشنطط عسكرها قطايع. جنَّح[1] عسكري على ضيعتنا ولطي عند حرمه مقطوعه، والحرمه ـ معلومك ـ مقشوعها قصير. بلا طول سيره تجوّزتو، وبس دفي جانحو، ليله من الليالي، ظهر بحاجة نفسو وانطفى خبرو، لكن الحرمه بعدها ناطره، لحد اليوم، وإذا حدا سألها عنو، بتقول: لا تلوم الغايب تا يحضر!.

---

(١) إذا أُصيب العصفور في أحد جانحيه تحامل وطار إلى حيث يجد مكاناً يختبىء فيه من وجه الصياد، فيقال: جنَّح العصفور أي طار بجنح واحد.

هَيْهات تقمْلوُ قايْمـــه

في حـديث عن أَزمـة لبنـان ـ خـلال الأحـداث الدامية ـ وعن الضائقة الخانقة التي كان يرزح تحتها، تحدّث الزميل عيسى حمادة، قال:

ـ موظف نزيه محدود الراتب، له زوجة كثيرة المطالب، أَثقلت كاهله بالمصاريف حتى أَرهقته الـديون وكـثُر حولـه المطالبون فأَشارت عليه زوجته بالرحيل، وطلبت منه أن ينقل أمتعة البيت وينتقل بها تحت جنح الظلام إلى مكان آخر.

ورضخ الرجل لمشورة زوجته، وانبطح على بطنه وطلب منهـا أن تجمع أَمـتعة البيت على ظهـره لينقلها إلى حيث أَرادت.

يقول عيسى إن المرأة شحطت البرّاد وقلبته على ظهر زوجهـا، ودركبت الغسَّالـة على قفـاه، وشلقحت السجادة والحصيرة على كتفيه، وحوحشت ما تبقّى من الأمتعة وراحت تشقعها فوق ساقيه، حتى همدته... ثم قالت: «ما بقي غير جرن الكبّة».

قال: «طبّي الجرن عا راسي، وتعربطي برقبتي».

قالت: «بخاف ما تعود تقدر تقوم فينا كلنا».

قال: «ولك يا تقبريني، بَعدِك لليوم حتى عرفتي إني ما عدت إقدر قوم؟ أنا فيكِ وحدك مش قادر قوم، بدي اقدر قوم بهالدنيا كلها؟».

المرا خزانه، والزّلم بلا أمانه

قرب مدخل «كفرنبرخ» سمعت إحدى العجائز توصي امرأة شابَّة تهمّ بركوب سيّارة: ما تنسي يا بنتي، إن المرا خزانه، والزِّلم بلا أمانه... كُوني قد حالك، اللي ما بتنتبه لحالها، بيتغبَّروا ذيالها.

يودّوا نعاويها، ولا يتعيّروا فيها

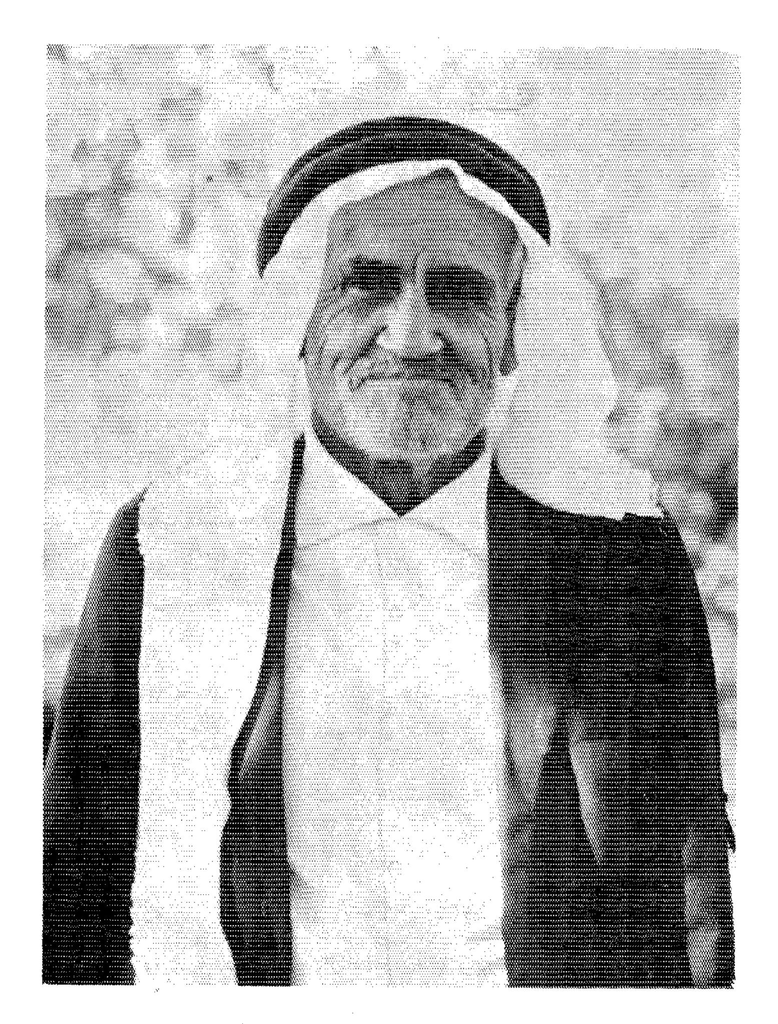
ثم رويتُ لأحد الأصدقاء حكمة عجوز «كفرنبرخ»، فتذكَّر وذكر أنه بينما كان يزور خالة زوجته في صيدا، وهي عجوز تسعينيّة، دخل رجل وأخبرها أن إحدى حفيداتها سافرت إلى أميركا لتتعلم فن الرقص، وذلك غضباً عن والديها. فلطمت العجوز صدرها وصاحت: ايه يا رب! يودُّوا نعاويها ولا يتعيَّروا فيها.

مَا بتنقفِر البضاعة،
إلاّ بعد الحَبَل والرضاعة

من القصص القديمة في قريتنا، أن شاباً من القرية، تزوج امرأة من خارج القرية وكانت عَلَى جانب من الجمال، فشكرت والدته الله وقالت: «الصبي غاب وجاب». وفرح جميع الأهل بالزوجة الجديدة، ما عدا جدة الشاب التي تحفظت بالمثل القائل: «ما بتنقفر البضاعه إلاَّ بعد الحَبل والرضاعه».

في ذلك الوقت، متى حبلت المرأة، كانوا يقولون إنها استقامت، هكذا كانوا يقرنون الحبل بالاستقامة، وكانت الرضاعة من مقومات الكمال النسائي.

وبعد مدة، صدق تحفظ الجدّة العجوز، لأن المرأة الجميلة الغريبة لم تستقم، وكان الأهل يريدون ولداً لإبنهم الوحيد، فانتهى مشروع الزواج بالطلاق.



الله ينجّينا من ثلج نيسان، ومن كيد النسوان

ختيار بالدّار، ولا عازة الجار

«ام شحاده» امرأة فيها زخم الرجال، ختيرت وبقيت كما قال المثل: يا أَرض اشتدي ما حدا قدّي. نيرانية المزاج، كلماتها شراقيط أينما وقعت أَحرقت، وكانت طراطيش شتائمها تصيب المستحقّين وغير المستحقين.

وكان عندها لكل جارة من جاراتها معيار:

ـ المقرقده، المجرعده، ام سماليق، ام شلاليق، بنت القرعوم، وبنت بو زلطوم.

وكانت ترتجل وصفاً لكل امرأة في القرية:

ـ منخارها مثل طرطزان الفخ. فراشيخها مثل ماعوس المحدلة. إجريها مثل مشاطيح التنّور. الله خالقها سطر عجله. عيونها مثل دعس الدجاج بالوحل.

فإذا تأدّبت أم شحادة اضطراراً، قالت عن إحدى الصبايا:

ـ يخزي العين... شو هالرشاقه؟... مثل الشرشاقه!

كان في قريتنا رجل، كلما أَراد أن يحل مشكلاً زاده تعقيداً فسمته أم شحادة «عَرْبَس»، وبقينا نناديه بهذا الاسم حتى أَخذ الله وديعته.

في بعض الأحيان، كانت بعض نساء القرية يجارينها في حفلات التشاقيع، مداراةً لخاطرها وخوفاً من لسانها.

التقيتها يوماً، فسألتها أين كانت، قالت: كنت عند أم خليل، رحت دعَّيت عندها عالمختار دعَّيت ودعَّت معي، ام خليل جبّارة خواطر، الله لا يكسر لها خاطر.

والتدعّي هو استعداء الله على أحد الناس:

- يصيبو، ينيبو، يبكّي حريمو، ينصر غريمو، يبليه ربي بالعمى والفقر وطول العمر.

وكان زوجها أبو شحادة رجلاً سليم النيّة، قليل الخصيّة، هاجر إلى المكسيك وتهجهج في ديار الغربة حتى شاخ وعاد أَخيراً مهيض الجناح، فلا يَجرّ ولا يُجَرّ عليه سلاح.

وذهبنا للسلام عليه، فإذا أم شحادة قد انقلبت امرأة لطيفة، أَنيسة، أَنيقة، مشرقة كأنك استبدلتها بأخرى.

ولم أشأ أن تمرّ المناسبة بدون حركوشة بريئة، فسألتها: كيف رضاك على بو شحادة يا أم شحادة؟

فابتسمت وبادرتني بمثل قديم من الصميم: ختيار بالدار ولا عازة الجار.

طلاق الكبير، يا قِلّة التّدبير

سمعت رجلًا يسأل رجلًا آخر: دَخلَك ليش بو مرعي طلّق حرمتو؟ قال:

- أول دان... جلجوقه.

- ثاني دان... مجاكرجيّه.

- ثالث دان... خاوزت مع ابن خالتها على ابن إخت زوجها. بالتالي... دِمّله وانْفَقَت.

فقال الرجل الأول: غلط بو مرعي، الله يسامحو... الطلاق بو ندامه، نسي شو قال المثل: طلاق الكبير، يا قِلّة التدبير. المرحوم الحاج صابر، بآخر أيامو، كان يقول: الحرمه بالبيت، ولو كانت فحمة عرّاطه، دخانها يعمي ولا بردها يضني.

أوّل دفعة من حقّ العجل

فلّاح، كان عنده عجل كثير النطاح، فكرهته زوجة الفلّاح وأكرهت زوجها على بيعه أو التخلص منه بأَي حال من الأَحوال.

وبعد أن تعذّر على الفلاح بيع العجل نقداً، باعه دَيناً ـ بناء على إلحاح زوجته ـ إلى رجل من قرية بعيدة، وتعهّد ذاك أن يدفع ثمن العجل أَقساطاً في مواعيد محددة.

وعند استحقاق القسط الأول، حضر الرجل واعتذر وقال إنه يأسف أَشد الأسف لأنه لم يستطع تأمين القسط.

ودخل الرجل إلى بيت الفلاح واستوى جالساً ومدّ حديثاً، فاضطر الفلاح إلى أن يقوم بواجب الضيافة، وطلب من زوجته إعداد عشاء للرجل ومكان لائق يبيت فيه.

ويظهر أن الرجل لحقه طرف برد وشوية نفخه ـ أجلّ الله شأنكم ـ فأخذ يتورّك ويتوعّك في فراشه، ثم أَطلق طَلَقاً جفلت منه زوجة الفلاح واستيقظت ولكشت زوجها وسألته: «شو هذا؟».



الناس أجناس، ناس بتنساس بالحكي، وناس بالمسّاس

قال: «هذا أَول دفعه من حق العجل».

لكن الدفعات تـوالت والطلقـات تكررت، طلقـاً بعد طلق، وكـان الفلاح كلَّما سمع طلقـاً لكز زوجتـه وقـال: «خـذي. . . ظلّيتي تنقّي عالعجـل حتى بعنـاه بـالتقسيط، إقبضي وتبحبحي يا بنت بو كراعين».

وفي الصباح ودّع الرجل، بعدمـا فطر، وقـال للفلاح وزوجته: «الله يقدّرني على مكافأتكم».

أجاب الفلاح: «كافيت ووفيت» أو «كفّيت ووفّيت» كما يقول البعض، وهي تعني في الحالين: «كافأتنا ووفيتنا حق العجل».

وهكـذا، كلما قـال قـائـل الآن: «الله يقـدّرني عـلى مكافأتكم» كان الجواب، تلقائياً: «كفيت ووفيت» على أساس هذه القصة، كما جرت عبارة: «أَول دفعة من حق العجل» مجرى الأَمثال.

البقّ ولا النقّ

بعد يوم حافل بالمتاعب أوى شكر الله إلى فراشه، وقبل أن يستغرق في نومه، تشهّلت زوجته ونادته:

ـ شكر الله، قطّاب امك رايحه جاي لعندي، شو فكرها تعملني مكسر عصا؟

ثم بعد ربع ساعة أيقظته وقالت:

ـ شكر الله، وصلت مواصيلها مرة خيّك تحرنقني بسكربينتها بس طويله عا رقبتها...

وبعد نصف ساعة همدرت:

ـ شكر الله، وَصَّيتك تودّي التنّوره لأمّي، ما وديتها شو بدها تلبس بكره عبكره؟

وقبل أن ينتصف الليل لكزته وقالت:

ـ شكر الله، إبن بو سبع صرلو جمعه بيحَورِك حول البيت، وبنتنا صارت صبيّه، وأنت معنقر شاربك ومش قاشع شو في عا جانبك.

وعبثاً حاول شكر الله أن ينام، لأن زوجته بقيت تنقّ عليه:

ـ شكر الله، انت مش حاسس، ولاد الشنديب عملو فينا بالشَّكَر بَكَر.

ـ شكر الله، انت مش زلمي، المي مارقه من تحتك.

ـ شكر الله، ماتت خالتك، كوكشوها إخوتك عن بو جنب.

فنهض شكر الله أَخيراً وحمل فراشه وذهب إلى غرفة أُخرى وهجع في سبات عميق غير أن زوجته ما لبثت أن لحقت به وأيقظته وقالت:

ـ شكر الله، شفت إنك بلا دِبّار، جيت تنام هون، نسيت ان الأوضه فيها بَق؟

فصاح بها: وِلك البقّ ولا النقّ[1].

---

(١) البقّ حشيرة لئيمة جداً تقرص النائم فيطير نومه.

رجعت سلّتها بلا تين

الحاج شحاده فهد من هواة أنتيكا القصص اللبنانية اتصل بي وأتحفني بالقصة التالية:

ـ بعد هجرة طويلة في البرازيل عاد جبّور، «الجيبه مليانه والصحه عدمانه» وأخذ يبحث عن عروس من بنات الضيعة.

وبسبب تقدّمه في السن كان ـ كما قال الحاج شحاده ـ يلاهي الناس بجيبتو عن شيبتو.

أخيراً حط عينه على إحدى الفتيات، وذهب يطلب يدها عن يد خوري الضيعة، وقال إن الله أنعم عليه بما يكفل مستقبلها، وإنه يضع تحت تصرّفها جميع إمكانياته المادية، بشهادة المحترم. فأثنى المحترم وثنّى على كلام الخواجه جبّور.

وكان والد الفتاة ذكياً لبقاً، فقال: «نحنا ما منتكبّر عالخواجه جبّور، بس أخونا جبور غاب وطوّل غيبتو وذاق الحلو والمرّ وشبع من زمانو وتنهنه، والبنت بعدها صبيةَ، والصبيّه نفسها مشتهيّه، ومعلومك يا محترم، كل ثمره بتنقطف

بأوانها، ولَسِبدّ ما البنت تشتهي وتمدّ إيدها عالتينه تقطف كوز تِين، منخاف التينه تكون صارت مفطّمه، ترجع البنت خايبه، كسفة الخاطر صعبه وشماتة العدا أصعب».

فقال الخواجة جبّور: «تين كثير، إيدها على ما تعطيها».

وتم النصيب واقترنت الفتاة بالخواجة جبور. لكن يظهر أن تينة الخواجة جبور كانت مفطّمة بالفعل، وصار ما كان في خبر كان وثبت عدم الإمكان.

وقبل أن يجهجه الصباح رجعت الفتاة وأخبرت أباها بما حصل وبما لم يحصل. فتوجّه حالاً إلى بيت الخوري وقرع بابه وقال له: «رجعت البنت يا محترم! قوم دبّر المسأله بمعرفتك».

فسأله الخوري: «ليش رجعت؟».

قال: «طلعت سلّتها بلا تين».

فجرت عبارته مثلاً.

شحار ومية شحار

إذا تفاجَأت إحدى العجائز بخبر مثير للحزن، صاحت: «شحار ومية شحار!» أي أن هذا الخبر يوجب تشحير الوجه بالشحتار الأسود، وهو علامة الحزن والحداد عند العامة، في لبنان.

يقول أبو الحسن داود إن لهذه العبارة قصة طريفة، قال:

كانت لِرَجُل ابنتان، تـزوجت الأولى فلاّحـاً، والثانيـة فاخورياً. وأَراد الرجل يوماً أن يتفقّد ابنتيه، فزار الأولى أولاً وسألها عن أَحوالها، قالت: «حالتنا بالويل، زرعنا كل بذارنا عَفير، والعفير بدّو شِتا بكّير، والدنيا بتغيّم بتغيّم ما كانت تعرف تشتي... من هَون لآخر الجمعه، إذا ما شتّت مَودرَ البذار وخرب بيتنا».

فقال الرجل: «لا، لا... الله كريم، مش شايفه الدنيا طالعه معبّقه من الغرب، غيمه ورا غيمه، بكـره عابكـره بتكون الدنيا طايفه بالشتا».

قالت إبنته: «الله يبشّرك بالخير طمّنتلّي بالي».

ثم انتقل الرجل إلى بيت ابنته الثانية وسألها عن أَحوالها، قالت: «حالتنا بالويل، كل فخارنا برّا وبعدو بدون حرق، مش صاير لنا محرق حتى نحرقو إلا بآخر الجمعه، والدنيا مغيّمه، ونحنا خايفين تشتّي... إن شتّت قبل آخر الجمعه، فاش الفخار وراح كل تعبنا خساره».

فقال الرجل: «لا، لا... الله كبير، وين الشتا، مش شايفه الغيم نتاتيف نتاتيف، مثل خبز الشعير البايت، هذا كلو غيم شوب، أَنجق لآخر الشهر تشتّي الدنيا».

فقالت ابنته: «الله يبشّرك بالخير طمّنتلّي بالي».

وعندما رجع الرجل إلى البيت، سألته زوجته، كيف حال البنات.

قال: «بلّشي شحّري وجهك، إن شتّت فاش الفخّار وأن ما شتّت مَودَر البذار».

فصاحت: «شحار ومية شحار!».

القسم الثالث

لكلّ مَقَامٍ مَقال

ألفْ أُجيرْ يُسْرِق وَلا شريكْ يحَاسِبْ

نزل أحد القرويين إلى بيروت وحلّ ضيفاً على ابن اخته، وهو استاذ اقتصاد في إحدى الجامعات. وحدث أن كان الأستاذ مدعواً إلى سماع محاضرة في موضوع اقتصادي، ولم يشأ أن يترك خاله وحده في البيت، فاصطحبه معه.

وبعد أن تكلم المحاضر زهاء نصف ساعة، سأل القروي ابن اخته: عن شو عم يحكي الأخ؟

قال: انه يشرح لنا لماذا نجحت الشركات المساهمة في أميركا وأوروبا، في حين ما زال الاقتصاد اللبناني يقوم على المبادرات الفرديّة.

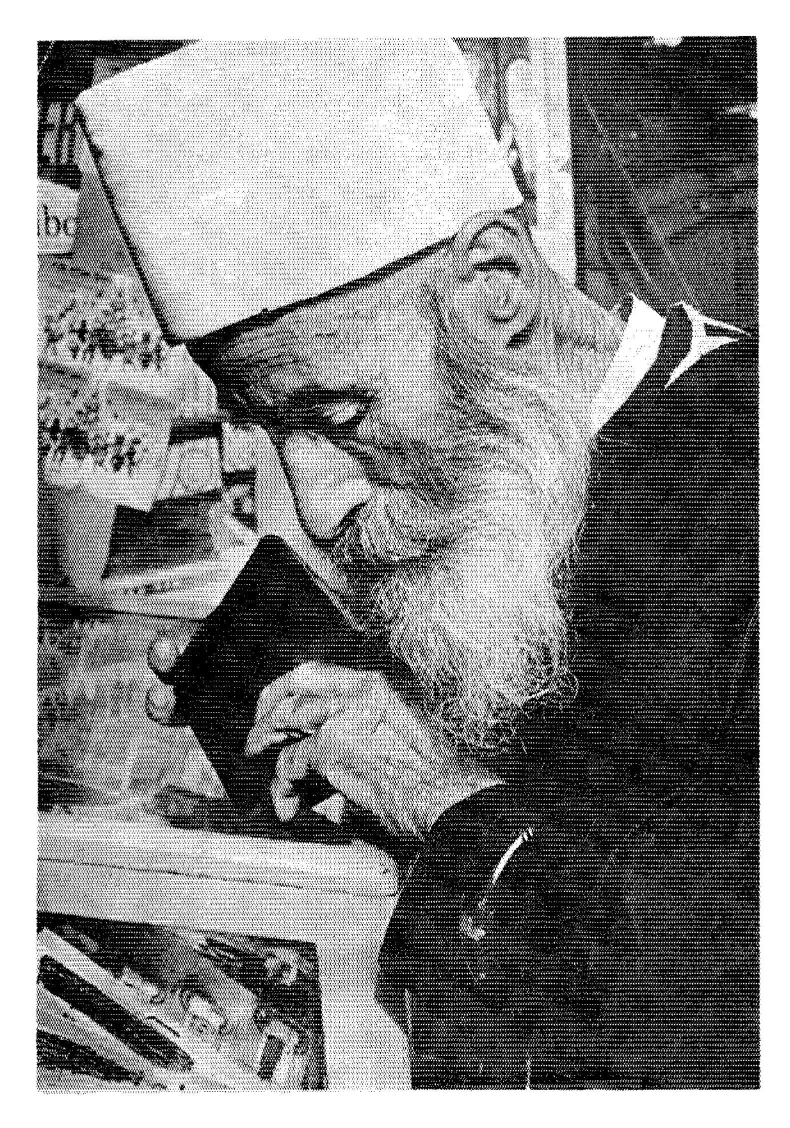
قال القروي: ولشو هالطولة الشرح؟ أهلنا كل عمرهم يقولوا: ألف أجير يسرق ولا شريك يحاسب.

إن حزَّت المحزوزيَّة
كلّ عنزة بتـلحق قطيعها

في القرن الماضي، وما قبله، كان الناس في جبل لبنان منقسمين حزبين متنافسين: اليزبكي والجنبلاطي. وكانوا يسمُّون الحزبيّة غرضيّة، فلا يتنازل الرجل عن غرضيَّته مهما كلّف الأمر.

ويُروى ان امرأة من الحزب اليزبكي، كانت عائدة من المطحنة، وهي تسوق دابّة عليها عديلة من الطحين، فزلقت الدابة ووقعت بالعديلة، بحيث اضطرّت المرأة إلى أن تفكّ العديلة عن ظهر الدابة وتنتظر مَن يساعدها على إعادة تحميلها.

وقدم قادم، وإذا هو من الحزب الجنبلاطي، فَدَوقرت المرأة وتجاهلته بدافع من غرضيتها. لكن مروءة الرجل أَبت عليه أن يتجاهل المرأة في محنتها. فتقدّم منها ـ لا سلام ولا كلام ـ وأمسك العديلة من جانب واحد، وأمسكت المرأة من الجانب الآخر، من دون أن تلامس يده يدها، وتعاونا على رفع العديلة إلى ظهر الدابَّة.



جهد الجاهل بثيابو، وجهد العاقل بكتابو

وعندما وصلت المرأة إلى البيت أَخبرت زوجها بما حدث، وقالت انها كانت تفضّل أن تموت على أن تقبل جميل الرجل، ولاسيَّما أنها وجدت نفسها، أخيراً مرغمة على تقديم الشكر إليه.

فقال زوجها: إذن حَقُّو وصلّو!

ثم صعد إلى سطح بيته، حتى أَصبح قبالة بيت الرجل، وناداه: يا بو معروف... كل واحد بيعمل بأصلو، بس شوف شوف... إن حَزَّت المحزوزيّه، كل عنزه بتلحق قطيعها.

لازِمْ سلامو يسبَق كلامو

رجل من حاصبيا صادفته أَمام إحدى البنايات في رأس بيروت، حيّاني بلطف وعرّفني بنفسه. فسألته ماذا يفعل في ذلك المكان. قال: «مستلم هالبنايه».

ففهمت انه يتولّى حراسة البناية وقلت مجاملاً: «أَرجو أن يكون صاحب البناية عارف قيمتك، لأنك من أهل الكرامة».

قال: «يا باطل! انا بو توفيق، وحياة شرفك عالمسك، إن كنت قاعد، وفات صاحب البنايه، إذا سلامو ما سبق كلامو، وحق خلوات البياضه ما بوقفلو، ولو كان راسو لاحق السما».

لا بيشكرك بحياتك ولا بيرحمك بمماتك

عاش في إحدى قرانا رجل من أفاضل الرجال كان عنده ابن وحيد اختلف مع أَبناء عم له فاغتالوه فعظم الأمر في عيني الرجل وانطوى علَى نفسه لا يتكلم ولا يقبل كلاماً من أحد.

وكان أَصدقاء الرجل وعارفو فضله يتوافدون يومياً إليه، ويجلسون حواليه متورّعين عن الكلام، حتى تجرأ أَخيراً أحد الرجال وقال: يقال: لكل مقام كلام، إلا أننا، يعلم الله، لم نجد على ألسنتنا كلاماً في حجم مصيبتك، لذلك مكثنا صامتين. لكننا الآن نسألك أنت الرجل الحكيم الفهيم أن تتكلم.

فاستوى الرجل في مجلسه، واستجمع قواه واستقام، وفتح فاه وقال: سألوا بو زيد:

ـ شو أطيب الأطايب؟ قال: رجوع الحبايب.

ـ قالوا: وشو أَغرب الغرايب؟ قال: فقير، ورأيو صايب.

ـ قالوا: وشو أَصعب الصعايب؟ قال: غدر القرايب.

وأَضاف الرجل: هذي نص مصيبه، بس المصيبه، يا إخوان، إني خايف مُوت على عجل، بيورثوني قرايبي، ومعلومكم مين قرايبي. الخَوري عبد الله كان فيلسوف، سألوه مرّه: شو أَصعب دَعوهِ على مخلوق؟

قال: أَصعب دعوه على مخلوق هي: يُورثك عدوّك: لا بيشكرك بحياتك، ولا بيرحمك بمماتك.

مَن صَبرَ ظَفَر

اشتهر عمي أبو ضاهر بالمرجلة في أَيام شبابه، وبالحكمة في أَيام شيخوخته، وكان يحدّثنا بقصص وأَمثال، وكان أَقرب أَمثاله إلى لسانه، مَثَل: مَن صبر ظفر، ومن تأنّى نال ما تمنى.

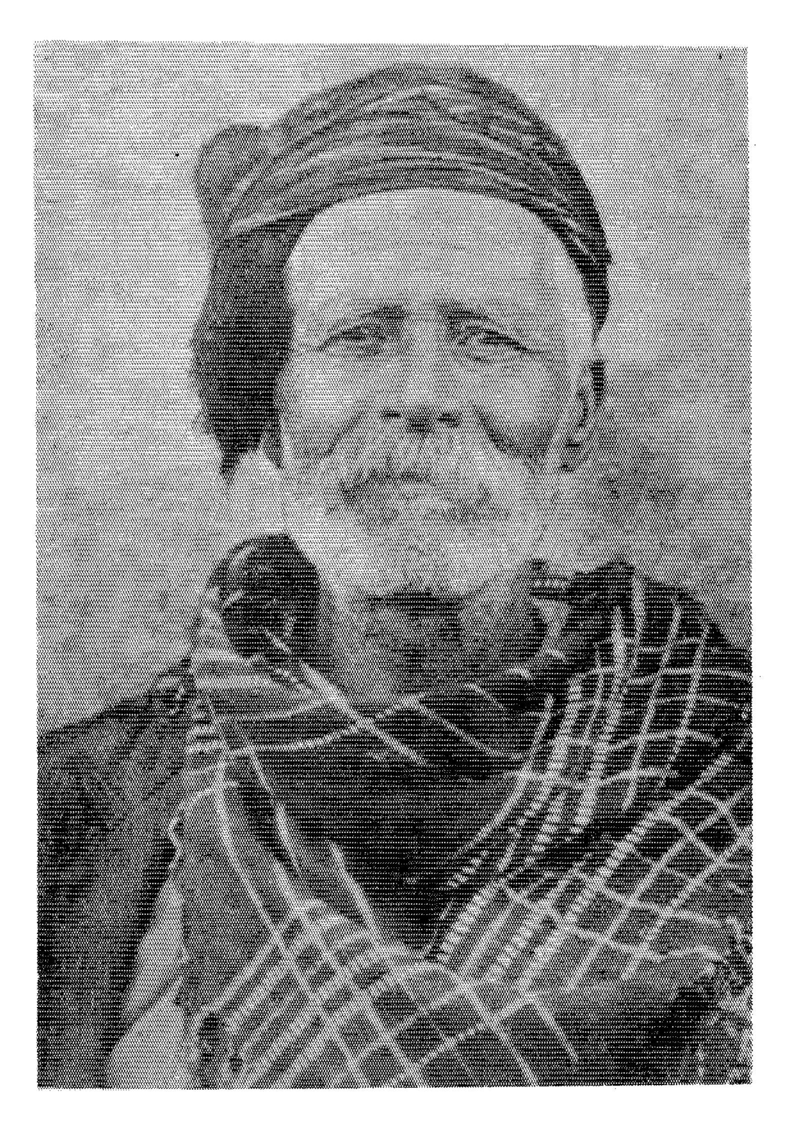
يقول العم أَبو ضاهر إن لقمـان الحكيم، قصد عنـتر عبس، من بلد إلى بلد، وقال له: أنت عنتر أَرجل أهل زمانك، فهل بإمكانك أن تعلمني المرجلة؟

فقال له عنتر: ضع إصبعك في فمي، وأنا أَضع إصبعي في فمك، وليعضّ كل واحد منا إصبع الآخر. وهكذا صار، فصرخ لقمان «آخ».

فقال عنتر: لو لم تقل «آخ» لقلت أنا «آخ». هذه هي المرجلة: أَن تصبر قليلاً حتى ينفد صبر عدوّك.

ثم قال عنتر للقمان الحكيم: وأنت أَحكم أَهل زمانك، فهل بإمكانك أن تعلّمني الحكمة؟

فقال له لقمان: ضع إصبعك في فمي.



جارك اللي بتصابحو لا تقابحو!

فمدّ عنتر اصبعه حالاً، ووضعها بدون تحفُّظ، في فم لقمان الذي عضها بسرعة، فصرخ عنتر «آخ».

فقال لقمان: لو فكَّرتَ قليلاً، قبل أن تضع اصبعك في فمي، لأدركت أني ربّما سأعضُّها وأُسبب لك أَلماً وأحجمتَ عندئذٍ عن وضعها في فمي. هذه هي الحكمة: أن تنظر في عواقب الأمور قبل وقوعها.

أُنا نَبِي لولا هذا الصَّبي

نسج العرب عدّة خرافات حول شخصيَّة لقمان الحكيم، منها أنه كان يجدد مثل النسر شبابه، حتى عاش ستماية سنة وكان أَحكم أَهل زمانه، حتى ظنّوه نبيّاً.

ومن القصص المنقولة عنه، على ألسنة الناس، وغير المكتوبة في الكتب، أنه كان يوماً يجلس حول النار، مع بعض جلسائه، فدخل صبي وطلب جمرة لأُمه لتوقد بها نارها، فقال له لقمان: أَيها الولد الأحمق، جئت تطلب جمرة ولم تُحضر معك وعاءً تنقلها فيه؟

فدنا الصبي وأَخذ رماداً بارداً من طرف الموقد وجعله على راحة يده ووضع جمرة فوقه ومضى.

فحزن لقمان، لأنه كان يحسب نفسه أحكم أَهل الأرض وقال قوله المشهور: أنا نبي لولا هذا الصبي.

نَفَـــدَ المقدّر

في ذاكرتي أُحدوثة عتيقة تعبق بالأصالة، لكنني نسيتُ أين ومتى وقعت.

قال رجل لابنه: يا ابني، صار لنا زمان ما زيَّتنا سلاحاتنا ما بيسوى بحقنا يصدّوا سلاحاتنا، أنا رايح مع امك عالبيدر، جيب انت السلاحات وزيّتهم.

لم يكد الرجل وزوجته يبتعدان قليلاً عن بيتهما، حتى سمعا طلقاً، فقال الرجل لزوجته: نفد المقدّر، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وانتشر بسرعة خبر مصرع الشاب وبدأت الاستعدادات للمأتم.

وكان جد الشاب، والد امّه، شيخاً تقيّاً، شبعان اياماً، انصرف إلى التعبُّد والتأمل في مكان، في قرية مجاورة.

وعندما بلغه خبر وفاة حفيده، قصد شيخاً آخر مشهوداً له بالحكمة وسداد الرأي، وقال له: يا أَخي، علمت الآن

بوفاة ابن ابنتي، وجئت أستشيرك، هل أحضر أم لا أَحضر مأتمه.

أجاب الشيخ الآخر: إذا حضرت مأتم حفيدك، ستجد نفسك في موقف حزن وتفجّع، ومَن كان مثلك ومثلي لا يليق به أن يحزن. أما إذا كنت تظن أن ابنتك، ربما غلبها الحزن، وتصرّفتْ في المأتم أَمام الناس، تصرفاً غير لائق، عندئـذٍ يكون حضورك أفضل من عدم حضورك.

المسْنُود يحكي

معاون سائق أوتـوبيس، تضايق من كثـرة المتدافشـين للركوب، فرفع عقيرته وصاح: «شوهيدا، البنادمين صاروا بهايم، ما حدا بيحس، يا عمي الأوتوبيس مليانه، الأتوبيس معشّره محترق دينها، تعو إركبو عاظهري، إركبو عا...».

وخوفاً من ركوب المركب الخشن وجمنا جميعاً، ما عدا واحداً من الركاب قال: «بيـظهر الأخ مسنود، يا عمي، اللي عندو سانود يسندو بيحكي، واللي ما عندو سانود يسندو يسد بوزو ويسكت».

فسكتنا جميعاً.

وساع في الدنيا وفي الآخرة

عقيب زلزال سنة ١٩٥٦، دخل رجل من جبل عامل على أميل البستاني - رئيس مصلحة التعمير، يومئذٍ - في مكتبه، وقال:

كان عندي بيت مَفَرَش سِتّ حصر، تصدّع بالزلزال، راح المهندس كشف وأَعطاني مواد بناء أَنجق تعمّر بيت مفرش حصيرتين، وداعيك، عندي حريم ثلاث نسوان، على الأقل مفرش حصيره لكل حرمه.

فاستلطف البستاني حديث الحصر والحريم، واستدعى مهندس المنطقة وأَمره أن يضاعف كمية المواد المقررة للرجل.

فقال الرجل: طوِّل عمرك، سيدنا، بَس مريم وراها ولدين، وآمنه وراها أَربعه، ونفيسه وراها خمسه، والباقي عَ الله.

فأمر البستاني بزيادة جديدة أُخرى.

فقال الرجل: طوِّل عمرك سيدنا، إنت بي الفقير. . .
بس وين بروح بأمي وبيي ورضاهم عليي؟

فأمر البستاني، مرة أُخرى، بزيادة جديدة على مواد البناء.

فانشرح خاطر الرجل، وقال: ما تبلى كفوف السخايا. . . كفيَّت ووفيّت، بس إذا توسّعت سعادتك، معي بعد بشي مفرش حصيرتين، بيصير إسمي «الحج حسين» وفهمك كفايه. . . بتكون وَسَّعتلّي بالدنيا وبالآخره.

عَالحصير، لاطويل ولاقصير

هكذا، كانت الحصيرة مقياس الطول والعرض، لقياس مساحات البيوت، في جبل عامل وبعض أَنحاء سوريا وفلسطين.

والحصيرة المقصودة في كلامنا هذا، هي الحصيرة التي كان أَهل الحوله، في فلسطين يحيكونها من نبات «البيبير» الذي كان ينبت في مستنقعات الحوله، وكانوا يصنعونها بقياس واحد محدد ـ ستاندرد ـ ويصدّرونها إلى جميع المناطق المجاورة.

فإذا أَراد أَحد الناس أن يبني بيتاً جديداً، وجب عليه سلفاً، أن يحدد مساحته بالنسبة إلى عدد الحصر المفروض فرشها فيه، بحيث لا تبقى في أَرض البيت أية مساحة غير مغطّاة، وبحيث لا يضطر إلى قطع أَية أَجزاء من طول أو عرض بعض الحِصر.

ومن هنا أَصل القول المأثور: عالحصير، لا طويل ولا قصير.

* * *

في جبل عامل إذا أَراد رجل أن يدعو لصديقه بالخير، قال: الله يطعمو دار وسيعه ومرا مطيعه. فإذا كانت عند أَحدهم دار وسيعة وأخلاق غير رفيعة، قالوا: وساع في الدنيا وضيق في الآخرة.

ما في برقة تحت حجر بتخْتِفي

حدّثني الخوري حبيب مراد عن أَيام الخير والبركة.

ـ مات في قريتنا شيخ جليل فاضل، وأُقيمِ له مأتم لائق، وإذا بِرَجُل غريب يتقدّم من بعيد ويصيح: حيف يا فكّاك المشاكل... يا جبّار الخواطر... يا ستّار العيوب.

وبعد الجنَّاز سلّم والدي على الرجل، ودعاه إلى «لقمة رحمة» في بيتنا، وهنالك سأله: قلت ان الفقيد كان فكّاك مشاكل، هذا صحيح، وقلت إنه كان جبّار خواطر، هذا صحيح، كذلك قلت أيضاً إنه كان ستَّار عيوب، فماذا عنيت بكلامك هذا؟

قال الرجل: منذ عشرات السنين، في زمن الطيش والجهالة، ارتكبتُ حماقة لو انكشف سرّها في حينها، لكانت إحدى الفضائح.

وحدث، بالصدفة، أن الفقيد وُجد في ذلك المكان ووقف على سرّي وعرف حماقتي، فما كان منه إلا أن بصق

على الأرض وتناول حجراً وضعه فوق البصقة، وأَدار ظهره ومضى كأنه لم يرَ ولم يسمع شيئاً.

فاطمأن قلبي، لأن الرجل كان، في ذلك الزمان، إذا خبَّأَ بصقته تحت حجر، فكأنه، بهذه الوسيلة، يؤكد أن السر الذي اطلع عليه، قد اختفى إلى الأبد، كما اختفت البصقة تحت الحجر. هذا كان من تقاليد ذلك الزمان، ومن مواثيق الشرف عند أَصحاب الشرف.

لذلك - يقول الخوري حبيب - إننا ما زلنا نقول، عن رجل تعهَّد بكتمان سر ثم أَفشاه انه «لحس بزقتو». كما نردد في بعض المناسبات قولنا المأثور: ما في بزقه تحت حجر بتختفي.

اللّي بيبزق ضدّ الريح
بترجع بَزقتْو عَاوجْهو

موظف يتعاطى السياسة، اتخذ رئيسه بحقه تدابير زجرية، سمعت موظفاً عتيقاً يلومه، قال: «يا إبني، اللي بيبزق ضدّ الريح، بترجع بزقتو عا وجهو».

ألفْ كسْرة رِجْـل ولا كَسْرة خاطِرْ!

زلّت قـدمي فَكسـرت رجـلي. وقبعت في بيتي أَتقبّـل مأثورات الكلام لمثل هذا المقام.

فزارني صديق من حاصبيا وأَراد أن يهوّنها عليّ:

ـ الشيخ هايل أبو سنان كان فارس الفرسان، مشكور منظور مثل الرمح عَ كتاف الرجال، وقع عن حصانه وكسر رجله، فصعب الأمر عليه وكبرت المصيبة في عينيه.

وفي أَحد الأَيام فطن إلى أن جميع رجال القرية زاروه وآسوه في بلواه، ما عدا صديقه أبو جابر، فسأل: وين بو جابر، يا جماعه تخمين مش عارف شو صابني؟

قالوا: خلّيهَا عَ الله، بو جابر مالوش عين يواجه الناس، خاطرو مكسور، بنتو ـ البعيده ـ شافوها، عند نص الليل راجعه وحدها من معبور بيت بو شرشور.

فصاح الشيخ هايل: يا حيف! هذي مصيبه محرزه، يا

مسكين يا بو جابر عاكَسرة خاطرك... يا عمي... ألف كسرِة إجر ولا كَسرة خاطر!

ثم زارني الصديق الدكتور ابراهيم داغر، فرويت لـه القصة، وبعد أسبوع عاد وروى لي أنه سمع نشرة الأَخبار الرياضية من إذاعة لندن تذيع تفاصيل مباراة في كرة القدم، وانه سمع المذيع يقول: وقع اللاعب فلان.. لم يستطع أن ينهض... انسحب من اللعب... حمله رفاقه إلى خـارج الملعب... شوهدت الدموع تنهمر من عينيه.

ثم يعلّق المذيع: فعسى أن يكون بكاؤه من كَسر خاطره لا من كِسر في رجله.

ثم زارني بعد ذلك الأخ «نايف عطرشان» فرويت له قصة الشيخ الذي قال: «ألف كسرة رجل ولا كسرة خاطر». وقصة المذيع البريطاني الذي تمنّى أن يكون بكاء اللاعب من كَسر خاطره لا من كِسر في رجله.

فقال الأخ نايف: صديقنا الشيخ، خاطره هو أغلى ما عنده، واللاعب البريطاني، رجله هي أغلى ما عنده، والمثل اللبناني يقول: «قدّ عازتك ليه، إبكي عليه!».

أَلفْ زَلّة قدم ولا زلّة لِسَان

كنت نشرت قصة: ألف كَسرة رِجل ولا كَسرة خاطر، في مجلة الحوادث، فجاءني صديق مرجعيوني وذكرني بقصة مرجعيونية قديمة:

مات وجيه مرجعيوني اشتهر برجاحة عقله، عن ابن وحيد لم يرث شيئاً من مزايا أَبيه.

وحدث أن حضر الحاج محمد العبد الله معزّياً، بحضور وجهاء البلدة، فقام ابن الفقيد يصف الخسارة بفقد والده، قال: مات الكرّاز وما بقي غير الجِدا.

فقال الحاج محمد لِمَن كان قربه: صارت المصيبة مصيبتين: فَقْد السَّلَف وسوء الخَلَف.

ويُعزى إلى الحاج محمد المذكور قوله في إحدى المناسبات: ألف زَلّة قدم ولا زلّة لسان.

بالعربي الفصيح

كنت يوماً أزور أحد الأصدقاء، فدخل رجل وقال: سلّمت مطعمي إلى ابني، كي يديره مع زوجته، كان مدخول المطعم مئة ليرة يومياً، صار عشر ليرات، شو قولك يا بو أمين، الناس بطّلوا ياكلوا؟

أجاب أبو أمين: ولَك لأ، الناس ما بطّلوش ياكلوا، بس «بالعربي الفصيح» إبنك قلعوط ومرتو مشبشله، وكيف بدهم يعرفوا يتسيسروا؟

فقال أحد الحاضرين: إذا كان هذا الكلام «عربي فصيح» كيف بيكون «الحكي المشبرح»؟

ففطنت عندئذٍ إلى أن هنالك نوعين من الكلام عند العامة: العربي الفصيح والحكي المشبرح.

يقول أحد المجتهدين في حضارة العامَّة، إن عبارة «بالعربي الفصيح» لا تعني مطلقاً، عند العامة أن الكلام هو باللغة الفصحى، بل كل ما تعني أن المتكلم يريد أن يقول الحقيقة.

ذلك لأن عبارة «بالعربي الفصيح» تذكّر الرجل العامي بِـ «حلفان اليمين» في المحكمة، حيث يطلب القاضي من الشاهد أن يردد وراءه باللغة الفصحى، القسَم التقليدي: أُقسم بالله العظيم أن أقول الحقيقة، بدون زيادة أو نقصان.

لذلك عندما يجد الرجل العامي، نفسه، مضطراً إلى أن يقول الحقيقة، مهما كلف الأمر، يقول: بالعربي الفصيح، الحقيقة هي كذا... كأنه يقسم بالله العظيم على صحة كلامه، ولذلك قيل: الكذب بالدارج والصدق بالفصيح.

كلّ بحواشْ إلُو محْواش

أما «الحكي المشبرح» فمعناه إلقاء الكلام على عواهنه، فيتكلم الرجل كلاماً غير مسؤول، دون أي تقدير للعواقب.

سمعت رجلاً يحاول إقناع امرأة، تزويج ابنتها بشاب، قال الرجل عنه: ابن حلال، كافي الناس خيرو وشرّو. فاحتدمت المرأة وقالت: إبن بو دكاديك مش من مجاويزنا، يروح يدوِّر عا ناس من وَقمو. . . بالمشبرح: كل بحواش إلو محواش، مثل ما قال المثل.

ثم استدركت المرأة، وقالت: بلا معنى، يا حج مسعود!

وهكذا جرّنا الحديث إلى نوع آخر من الكلام، هو الكلام «بلا معنى». فكل كلمة يمكن أن ترمز إلى عضو التذكير عند الرجل أو عضو التأنيث عند المرأة أو إلى عملية الجنس، يجب أن يقال بعدها: «بلا معنى»، أي أن المتكلم لا يعني ما قد يخطر في بال السامع.

و«البحواش» في لغة العامة، هو الثقب، أما «المحواش»

فهو عصا طويلة وغليظة تحكش بها النار، فإذا أرادت إحدى النساء أن تصف شيئاً طويلاً وغليظاً، قالت: مثل المحواش، بلا معنى.

لولا الكاسُورَة ما عِمْرَت الفَاخورة

في سهرة ضمّت بعض التجار والصناعيين، دار الحديث حول إنتاج السلع الاستهلاكية، وجرى نقاش حول ما هو أفضل لمصلحة الاقتصاد العام: جودة في الإنتاج وارتفاع في الأسعار، أم إنتاج رخيص قليل الضيان.

وعندما طال الجدال، استأذنت عجوز كانت تصغي إلى الحديث وقالت: نسيتوا شو قال المثل: لولا الكاسوره ما عمرت الفاخوره.

التغميس برّاة الصّحون

كما في أدب الخاصة رموز وكنايات واستعارات وتشابيه وتوريات وغيرها، كذلك في أدب العامة أنواع كثيرة من الكلام.

فإلى العربي الفصيح - غير الفصيح - وإلى الحكي المشبرح، وإلى الكلام الذي له معنى، بلا معنى، هنالك:

التغميس برّاة الصحون، وتغطية السموات بالقبوات، وتهبيط الحيطان، وتلطيش المسلّات، وضرب المسامير. وهنالك اللقلقة وتمسيح الجوخ وتمشيط الدقون، ناهيك بالضحك على الدقون.

وأمثال العامة على أنواع الحكي كثيرة:

مجنون يحكي وعاقل يفهم. إقعد أعوج وإحكي جالس. إسمعي يا جارة وإفهمي يا كنّه. كلمه بَتّ ولا عَشَره لَتّ. حكي بيحنن وحكي بيجنن.

وهنالك أنواعِ من الحكي يعبّر عنها العامة بالقال والقيل. ولكل نوع منها مَثَل أو أمثال.

قالوا: شو أَحلى من العسل؟ قال: الخَلّ بلاش.

قالولو: صبحك بالخير يا أَقرع. قال: هذا مفتاح باب الشر.

قالولو: الكردي نط الحيط. قال: هذا الكردي وهذا الحيط.

قالولو: يا فرعون مين فرعنك؟ قال: تفرعنت وما حدا ردّني.

قالوا للنوري: ليش لابس هالثياب؟ قال: منُّو من القِلّه ومنو من نهوشة الكلاب.

قالوا للديك: صيح! قال: كل شي بوقتو مليح.
وغير ذلك.

ناب الكَلبِ بجلْدِ الخنزير

في عَودتي إلى بيتي حانوتي استوطى حيطي، كلما عبرت أمامه، بادرني بخبرية، أو تبرع لي بنصيحة أو عَركجني بسؤال:

ـ يا أستاذ، وصل الثلج عالكحاله؟.

ـ يا أستاذ، جنس النسا قهّار!

ـ يا أستاذ، شو عندك وصفه لوجع العقل؟

أَمس قوطب عليَّ باستجواب: «يا أستاذ، شو في ما في؟» قلت: «علقت الحرب بين التتر والبربر».

فتلفت حواليه، وقال بصوت منخفض: «يا عمي! هذي الإنكليز، لا بتستريح ولا بتخلّي حدا يستريح، بتعلق ناب الكلب بجلد الخنزير، وبتقعد تتفرّج، يا بينقلع ناب الكلب، يما بينقرط جلد الخنزير».

صار اللي صار...

من أجمل ما كان يقصه علينا المرحوم كامل أبو نصار أن رجلاً من كرام القوم، سقطت من يده حاجة، بالقرب من حمار مربوط، فهمّ الرجل بالتقاط حاجته، فرفسه الحمار في صدغه، فمات الرجل في الحال.

وكان الرجل سيّداً في عشيرته، زعيماً في عائلته، وشق على أبنائه أن تصرع أباهم رفسة حمار، وهو راعي الحصان وفارس الفرسان، وفي ذلك عار كل العار فذهلوا ووجموا لا يعرفون ماذا يفعلون.

لكن الخبر ما لبث أن شاع، فأقبل رجال القرية، ووقفوا خارجاً متهيّبين. فلكل مقام مقال، أما هذه المصيبة، فلم يكن عندهم فيها ما يقال.

أخيراً حسم الموقف أحد أصحاب الرأي، قال: «يا إخوان، ما صار شي إلا صار أعظم مِنو.. صار اللي صار، وما هو معيار.. فوتوا ناخذ بالخاطر».

مشْ رمّـانة قلوب مَليانة

هنالك نوع من الكلام، هو «التخبيص بالوحل».

حدثني صديق قال: رحنا نسهر عند الخوري، حتى نسمعلنا كلمتين نظاف، صارت الخورية تخبّص بالوحل، قمنا فلّينا.

فقبضتُ على الرجل وطلبت منه أن يذكر لي كيف يكون التخبيص بالوحل، قال:

ـ بلّش أبونا حنا يحكيلنا عن أيام زمان ـ قبل ما صار محترم ـ كيف هرب مع أبو نمر، بأيام «سَفَر بَرلِك» من «بير سبع». قامت الخوريه وقاطعت الخوري وقالت: على سيرة بو نمر... بو نمر عامل حالو رجّال، ليش ما بيلحق حالو وبيجوّز بنتو، شو بعدو ناطر، البنت: يا سترتها يا جورتها.

وأضاف محدّثي: بس هذي مش رمّانه، هذي قلوب مليانه.

واستطرد: مسكين أبونا الخوري ما بيمون على أهل بيتو،

خَولَف عالخوريه وقال: بنت بو نمر حلوه وعاقله وبتستاهل أحسن عريس بالضيعه. فوقفتُ وقلت: يا أبونا هذا «تغيير شنكاش»، الكلمه بغير محلها إن ما قتلت علّمت.

قَوْلِةِ يا خوريّه ولا كيس خَمِسْمِيّه

في حديث عن أحد المرشحين للنيابة، قيل إن زوجته باعت جميع جواهرها وحليّها وصرفت ثمنها في المعركة الانتخابية على أمل أن يصير زوجها نائباً، فيقال لها: «يا مرة النايب».

فعلّق أحد الحاضرين: صدق قول المثل: قولة «يا خوريّه» ولا كيس خمسميّه.

حَكْيٌ أُصُولي وَحَكْيٌ غيرْ أُصُولي

أبو شاكر شقبان، من أَسياد الكلمة، تترقرق العبارات على لسانه عفو الخاطر، بدون عناء أو تكلّف.

بلغني أنه قبض على لص في بيته. قلت: يجب أن أَفتقده بزيارة وأَستمع إليه يروي واقعة الحال.

وتخيّلته سلفاً يصف لي كيف صرخ باللص، فجمد الدم في عروقه، وكيف أَمسكه برقبته ليذبحه، ثم عَفّ وعفى عنه، عندما تذكّر المثل القائل: العفو عند المقدرة.

وبعد السلام، وقبل أن يستقر بي المقام، بدأت «فرنسواز» كنّة أبو شاكر الكلام، قالت: لو بتعرف شو صار، كنا نايمين، سمعنا صوت...

فسألتها: صوت مشي يما حكي؟

قالت: لا مشي ولا حكي... هيك صوت مدري كيف.

فَهَمْدَر أَبو شاكر وقَوْدَم على كنّته وقال: معلومك، كنّتنا

بنت مدارس، ما بتفهم تحكي حكي أُصولي.

وتولّى أبو شاكر عندئذٍ، الكلام بطريقة أُصولية، قال: كنت نايم، سمعت خربشه، ما انـوهزت... بعـد شوي سمعت حـرتقه بـالباب، عـطيت أذني... غَـرَش. قمت تنوقست من قدح الباب وقوشعت من الطاقه، ما في حدا... رجعت نمت. ما غطّت عيني، حتى سمعت دحقره بالمطبخ، سحبت الفرد من تحت المخدّه وقمت...

فقاطعته: والمحروس شاكر، شو عمل؟

أجاب: شاكر مثل حرمتو، عظمو طري، وعقلاتو عِيره، ما بيعرف الحرتقه من الدحقره ولا الخربشه من الطحبشه، بدّك يقوم يعفش الحرامي عارقبتو مثل عتاعيت الرجال؟.

كلّ دعْسِه بطمْسِه

رجل من جنوب لبنان، وجدتهُ يقف شارد الفكر، أمام باب أحد الزعماء، فسألته: «شو في ما في»؟ قال: «نحنا، بهالأيام، مثل مداس الأعمى: كل دَعسه بطَمسه».

بَدّكْ تأكل عِنَبْ يمّا بدّكْ تقتُل النّاطور؟

خلال سنة ١٩٧٣ وقعت عدّة اضطرابات طلّابية في بيروت، تخللتها مظاهرات واشتباكات وأعمال عنف، وحدث، عند مرور إحدى هذه المظاهرات في كورنيش المزرعة، أني كنت أحلق ذقني عند حلّاق في تلك المحلة، فدخل أحد أساتذة الجامعة اللبنانية وجلس جانباً.

ثم تدخّلت قوى الأمن لتفريق المظاهرة، فتفعفر الطلاب، ولاذت شرذمة منهم بدكان الحلاق، فنشأ بين الطلاب وبين الأستاذ جدال بطبيعة الحال، حول مطالب الطلاب.

واحتدم النِقاش والقيل والقال، فخشيت أن يلحق أَخانا الحلاق طرف انفعال، وتمسمرت بين يديه، لا أَتحلفص ولا أَتنفّس، لئلا يتحمّس لجواب أو سؤال، فيشطر أنفي أو يثلم شفتي أو يشطب زراديم رقبتي، فأكون أنا الخاسر الوحيد في حلبة النزال، ورحم الله ابن الفارض حين قال:

ما بين معترك الأحداق والمهَجِ
أنـا القتيلُ بـلا إثم ولا حَرَجِ

لكن أخونا الحلاق لم يظهر عليه أي تأثير، ولم يتخذ لنفسه موقفاً، ولم يتدخل بكلمة ولا بحركة ولا بإشارة، وكأن شيئاً لم يكن.

فقلت في نفسي، هذا أول حلاق أعرفه في حياتي، لا ينفعل للسياسة ولا يوزّع آراءه على عباد الله، ولا يتبـرّع لزبائنه بنصائحه لوجه الله. وخطر في بـالي أن أُدوّن هذه الظاهرة الغريبة في مذكراتي.

غير أن الطلاب ما لبثوا أن انصرفوا. فالتفت الحلاق صوب الأستاذ، بعد أن قبض بعنف عَلَى كتفي بيسراه وجمّد موساه فوق رقبتي بيمناه ـ فجمد الدم في عروقي ـ وقال: يا أستاذ! إذا كنت مش فهمان نحنا منفهمّك، التلاميذ مابدهم ياكلوا عنب بدهم يقتلوا الناطور، حط عقلك براسك بتعرف خلاصك.

إن شكرتم لأزيدنّكم

زعيم جنوبي راحل، يُنسب إليه قوله: «الزلمي، ببلادنا، إطعمو أكله بينكرك، إطعمو قتله بيشكرك!».

المعربس قِصُّو ولَوْ نقص نِصُّو

في إحدى السهرات، كانت إحدى السّيدات تحاول تسريح شلّة صوف معربسة، فتدخل رأس الخيط من مكان وتخرجه من مكان، دون جدوى. وكانت تتمرمر وتمرمر خواطر الحاضرين.

أخيراً، قال لها رجل، بجد ورزانة: يا ست، المثل بيقول: المعربس قِصُّو ولو نقص نِصّو. فتناولت السيدة مقصّها وقصت الجزء المعربس، وانتهى الأمر.

وكنت أجلس قرب الرجل فسألته: من أين أتيتنا الآن بهذا المثل الجميل الذي لم أسمع أنا به من قبل؟.

أجاب: أنا اخترعته الآن، إذ لم يكن من المجدي أن أقدّم أي مشورة أو نصح إلى هذه السيدة دون نقاش وأخذ وردّ، أما المثل فلا سبيل إلى مناقشته، لذلك نسبت كلامي إلى المثل، فاستجابت السيدة وارتاحت وأراحت.

وفي نطاق تقصّياتي عن خبايا أدب العامة في لبنان،



اللي بتضيِّع راس الشمُّوط، شوبدها بكار الحياكه

وجدت أن للمثل، عند العامة، قوة توازي أحياناً، أقوال بعض الأنبياء والفلاسفة وعظماء الرجال. ولذلك يقول العامة: المثل نبي ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾ ـ الآية الكريمة، سورة إبراهيم.

اللي طيلع الحمار عالميذنه بينيزلو

خلال أحداث سنة ١٩٧٦ حدث أني كنت يوماً أقف أمام باب الفرن، بالصف، أنتظر دوري لشراء كيلو خبز، فتحلحل رجل كان يقف أمامي والتفت وسأل رجلاً كان ورائي: وبعدين شو بدّو يصير يا حج؟.

فتنحنح الذي كان ورائي وقال: اللي طيلع الحمار عالميذنه بينيزلو.

إن فرغِت جيوبو، كِثْرت عيوُبو

تقول أم جبران إن الكَرَم ستّار العيوب، وهي تعزّز رأيها بقصة امرأة تزوجت رجلاً غنياً فيه عيوب كثيرة، لكنه كان كريماً كلما غاب جاب، فلا تلتفت المرأة إلى وجهه، بل إلى يديه المحملتين بالهدايا.

ثم تحوّل زمان الأول، وافتقر الرجل وصار يعود إلى بيته خالي اليدين، فأخذت المرأة تكتشف كل يوم علة جديدة في زوجها:

ـ أَصلع أَكتع، أَفكح أَشطح، أَنقر أَزور، أَعوص أَجوص، أَجلق أَبلق، مكشّن مطشّن، مقطوع حيلو مثل البسين بآخر شباط.

وتضيف أم جبران: «الزلمي إن فرغت جيوبو، كثرت عيوبو».

مَقام المثَل في الكَلام مِسْكُ الخِتام

مع أننا نعرف، غالباً، مَن هو صاحب هذا القول المأثور، ومَن نظم ذاك البيت من الشعر، في مدى قرون من الزمن، مثلاً، إلا أننا نجهل أسماء الرجال ـ الجنود المجهولين ـ أصحاب الأمثال العامية، المتواترة على ألسنة الناس من جيل إلى جيل.

ويغلب الظن أن أصحاب الأمثال، هؤلاء، هم من عامة الناس، لا من العلماء والفلاسفة وصانعي التاريخ. إذ لو كان هؤلاء هم أصحاب الأمثال، لكانوا خلّدوا أسماءهم مع أمثالهم. أما العامة من الناس فليس تخليد أسمائهم من هواياتهم.

ولا ريب أن أمثالاً كثيرة، دارت على شفاه الناس، اختفى بعضها، وعاش البعض على مدى الدهر، لأنه كان نتيجة تجارب واختبارات وهموم واهتمامات، في حياة الناس، طوال سنوات حتى صار المثل مادة حية متجددة خالدة في حياة المجتمعات البشرية المتعاقبة.

أما مقام المثل في الكلام، فهو دائماً مسك الختام، إنه الحجر الأخير في بنيان الحديث، بواسطته يغلق المتكلم مدماك الكلام.

اختلف البحر والرّيح طلعت الفلّة عالمركب

خلال أحداث لبنان الدامية، سنة ١٩٥٨، كانت راشيا الفخار مسرحاً لعدة عمليات عنف.

وعندما انتهت الأحداث حضر القائد العقيد جميل الحسامي وأجرى صلحاً بين أبناء القرية، وألقى فيهم كلمة قال فيها إن زعماء لبنان اختلفوا في ما بينهم، لكنهم «والحمد لله» عادوا واتفقوا على مبدأ «لا غالب ولا مغلوب».

فقاطعه الخوري حبيب البديوي، كاهن القرية، وقال: اختلفوا واتفقوا ونحنا دفعنا الثمن، وصح فينا قول المثل: اختلف البحر والريح، طلعت الفَلّه عالمركب.

بمشي الحَيْط الحَيْط ...

كانت مديرية الدفاع المدني أجرت دورة تـدريبية عـام ١٩٦١، ضمّت موظفاً من كل إدارة حكوميـة، وذلك من أجل تدريب الموظفين، نظرياً وعمليـاً على وسـائل الـدفاع المدني.

وكنت أنا في عداد هؤلاء المتدربين مندوباً عن المصلحة الوطنية للتعمير، في الدورة، وكـان المحاضـرون نخبة من ضباط الجيش اللبناني.

وحدث يوماً أن أحد كبار الضباط ـ ربما العقيد جميل شهاب على ما أذكر ـ كـان يلقي علينا درسـاً في موضـوع القصف المدفعي، وفي ما هي مسؤولياتنا الدفاعية عندئذٍ تجاه المواطنين، كالإغاثة والإسعاف وغير ذلك.

ولاحظ العقيد المحاضر أن أحد المتدربين، وهو طبيب معـروف في وزارة الصحة ـ عـلى ما أظن ـ غـير منتبه إلى كلامه، لأنه لا يقبض المسألة جدّياً.

فناداه باسمه وسأله: ماذا تفعل، إذن، يا دكتور، إذا كنت ماشياً في الطريق وحدث قصف مفاجىء؟.

فارتبك الدكتور قليلاً، ثم استدرك وقال: بَعْمَل مثل ما قال المثل: بمشي الحيط الحيط وبقول يا ربي توصّلني عالبيت.

لِكُلِّ مُناسَبةٍ مَثَلْ

في إحدى سهرات الشتاء، في القرية، دار نقاش حول ما هو أصعب على الولد، أن تموت أمه فيتزوج أبوه أم أن يموت أبوه فتتزوج أمه.

فقال أحد الحاضرين إن أصعب شيء عَلَى الولد أن يموت أبوه وتتزوج أمه، فينشأ الولد ذليلاً، لأن العم زوج الأم لا يهتم بتربية أولاد زوجته، والمثل يقول: الحاجه اللي ما بتهمّك وصّي فيها زوج أمك.

فانبرى له رجل آخر قال: لا، لا، يا بو سعيد، ما في يتيم إلا يتيم الأم والمثل بيقول: جناح الأم بيلم وجناح الأب طيّار.

تاجِر القُوت مَمْقُوت

عندما بدأت أكتشف ما أُسميه «أدب العجائز»، وهو من أعرق أنواع الأدب وأصدقها عند العامة في لبنان، نشأت بيني وبين بعض العجائز علاقات ودّ واحترام.

وحدث لقاء لنا ذات مساء عند أحد الأصدقاء، ودار الحديث حول أزمة السكّر، فحمل بعض الحاضرين على التجار، بينما تحامل آخرون على الحكومة.

وكانت إحدى العجائز تجلس جانباً، لا تبدي ولا تعيد، فدنوتُ منها وسألتها رأيها، قالت: المثل بيقول: «تاجر القوت ممقوت»، وأضافت أن التاجر لا يفهم غير مصلحته ولا يحب غير نفسه، ولذلك كان أهلنا يقولون: «إذا غليت الحبّة بطلت المحبّة».

عِندما تحلْفَصت الأَرض

عقيب زلزال ١٩٥٦، رافقت إميل البستاني، رئيس مصلحة التعمير، يومئذٍ، في جولة على المناطق المتضررة.

هناك التقينا مئات الأشخاص، كل واحد روى أو حاول أن يروي لنا، كيف شعر بالزلزال، وماذا قال أو فعل.

لاحظنا أن الكلام عن تأثير الزلزال، في نفوس الناس، زاد كثيراً عن تأثيره في تدمير منازلهم.

لذلك صرّح البستاني، في حديث له، مع رجال الصحافة، أن الزلزال هدم أو صدّع زهاء عشرة آلاف بيت، لكنه دمّر أعصاب أكثر من خمسين ألف رجل وامرأة.

في إحدى قرى منطقة جزين، انتصب أمامنا رجل وقال: كنت نايم مع عيلتي، ما شعرت إلّا الأرض تحلفصت تحتنا... نجّينا يا رب!... فتحت عيوني ما شفت غير حجارة البيت تفلفصت، نشبت، جوجلت ولادي وهشلت...

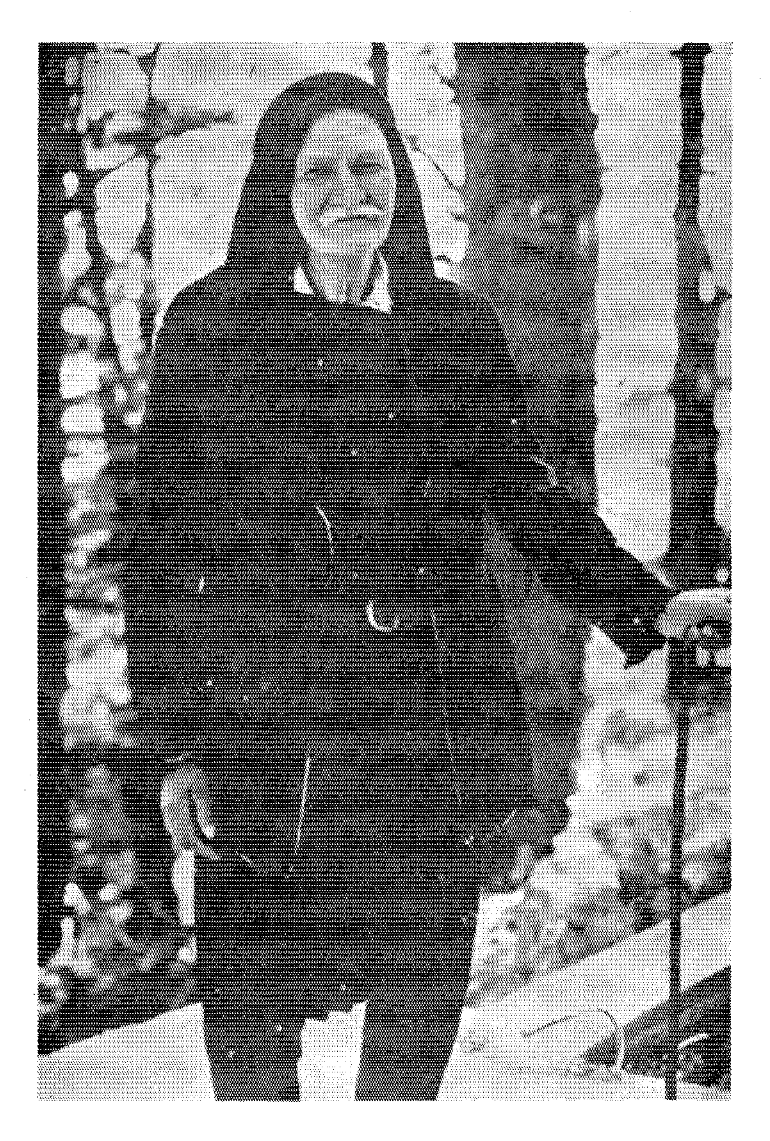
فالتفت إليَّ البستاني مستحسناً، لكن الرجل ظنه مستهجناً، فانبرى متكلماً في الفصحى، قال: بالحقيقة يا أستاذ أنه وقع شيئاً لم وقع له مثيلاً...

فانتهره خوري الضيعة: بيكفي! نزعتها يا حج نهرا.

كان إميل البستاني، طاب ذكره، يستطيب مذاق الكلمة، ويستمرىء جمال العبارة، فطلب مني، في طريق العودة، أن أعيد على مسمعه كلمات الحج نهرا، فقلت: الأرض تحلفصت، وحجارة البيت تفلفصت، نشب الرجل وجوجل أولاده وهشل.

فقال البستاني: في مقدوري أن أتصوّر كيف تحلفصت الأرض وكيف تفلفصت حجارة البيت، وكيف نشب الرجل بسرعة ولكن يصعب عليَّ أن أتخيَّل كيف جوجل أولاده وهشل.

ثم أضاف البستاني: ومما يؤسف له حقاً أن هذه الثروة من الكلمات العامية الأصيلة التي تتحلّى بها الشخصية الريفية في لبنان، ستختفي قريباً عن شفاه الناس، إلى الأبد.



كل عِلهِ دواها الصبر. إلا قِله الصبر ما إلها دوا

القسم الرابع

اصطِلاحات الكلام عند العامّة



صنعة بعقاقيد

إذا سألنا إحدى السيدات، عما إذا كانت تُتقن صنع الكشك مثلاً، أو القاورما، قالت: «وَلَوْ، شو هي صنعه بعقاقيد؟» «فالصنعة بعقاقيد» إذن هي صناعة معيّنة تحتاج إلى مهارة فائقة.

صديق خبير بالسجاد يقول إن: «الصنعة بعقاقيد» هي صناعة السجاد العجمي، ويكمن سرّ هذه الصناعة في تعقيد الخيطان بطريقة فنيّة تضمن حياة السجادة إلى أمد طويل.

اصطلاحات الكلام

على ألسنة اللبنانيين إصطلاحات في الكلام يفهمها عامة الناس حسب مضامينها المتعارف عليها في الحديث، لا حسب معاني كلماتها.

ولا بدّ أن تكون لهذه الاصطلاحات قصص أو أصول أو أساطير أو جذور فكريّة في مجتمعاتنا القديمة أو في مجتمعات أُخرى.

وقد اكتشفت خلال بحثي عن مأثورات الكلام عند العامة أن قصص بعض الاصطلاحات كانت لا تزال تعيش في خيال بعض المعمّرين، واستطعت أن أقطفها عن شفاههم قبل أن تذوي معهم في غياهب القبور.

ومن يقرأ كتابي الأَول «لئلاَّ تضيع» وكتابي الثاني «في الزوايا خبايا» يجد قصص بعض هذه الاصطلاحات، التي جرت مجرى الأَمثال، مثل: «اللي بيدري بيدري واللي ما بيدري بيقول كف عدس»، و«النذر للدير «والمسك» على سمعان» و«بِق البحصه يا انطون» و«خمّنا الباشا باشا تاري

الباشا زلمي»، و«كرمال عين تكرم مرجعيون»، وغير ذلك.

وفي حديث تلفزيوني لي عن أَدب العامة، ناشدت هواة انتيكا القصص الشعبية أن يوافوني بما عندهم، فاتصل بي كثيرون وزوّدوني بقصص كثيرة تكشف النقاب عن أُصول بعض الاصطلاحات، أَنشرها في كتابي هذا.

لكن بقيت هنالك إصطلاحات كثيرة لم يكشف النقاب عنها حتى الآن.

فإذا تكلمنا عن رجل معتدّ بنفسه، قلنا: ضارب حالو بحجر كبير.

وإذا كان من الصعب محاسبته على جرم ارتكبه، قلنا: ذَنبو عاجنبو.

وإذا كان سريع الخاطر، قلنا: جوابو تحت باطو.

وإذا نجا من جماعة أرادوا به شراً، قلنا: طلع منهم شَرد مَرد.

وإذا طلب ما لا يُستطاع، قلنا: طويله عا رقبتو.

وإذا تطرّف في كلامه، قلنا: تخنّتها.

وإذا راوغ واحتال، قلنا: بدو يعمل بالشَّكَر بَكَر.

وإذا تواقح وتجاوز حدود الأدب، قلنا: طق شرش الحيا.

وإذا كان كلامه من نوعٍ الثرثرة، قلنا: هذا طق حنك.

وإذا تلقى عرضاً مغرياً، قلنا: يضحك بعبّو.

وإذا انطلت عليه حيلة، قلنـا: عَدَّى السبت بطرف اليهودي.

وإذا سبق أحدنا إلى رأي، قال له: عمرك أطول من عمري.

وإذا أراد أحدنا أن يناصبه العداء، قال له: إجاك مين يعرفك يا بلّوط.

وإذا رأيناه مع جماعة من عشران السوء، قلنا: عاشكلو شكشكلو.

وإذا عجز عن مجاراة أحد المحتالين، قلنا: ما قدر يقطّع خيطان معو.

وإذا أراد أن يساومنا في موضوع، قلنا: عدس بترابو وكل شي بحسابو.

وإذا عمل عملاً وانكره، قلنا: أَنكر الحنّا وإثرها.

وإذا أردنا أن نقطع علاقتنا معه، قلنا: يا أهل كفرحونا، لا تاخذوا منا ولا تعطونا.

وإذا كان مشبوهاً قلنا: صوفتو حمرا.

وإذا عرض علينا خدمة، قلنا له: إيدنا بزنّارك.

وإذا جلب المتـاعب على نفسـه، قلنا: جـاب الـدب لكرمو.

وإذا اطمأنَّ إلى خبر ما، قلنا: فَلَش جلدو عا بدنو.

وإذا كان مشاكساً، قلنا: بيلاطش خيالو.
وإذا لازم رجلاً مثله، قلنا: علي وزويك وزويك وعلي.
وإذا تكلمنا عن رجل آخر مثله، قلنا: شرحو.

وإذا كان له أخ أنحس منه، قلنا: شهاب الدين أ. . ط من أخيه.

وإذا ارتكب حماقة وحاول أن يجد تبريراً لها، قلنا: بدّو يطلع بخيال إصبعو. وغير ذلك.

أهل الحلّ والربط

في أيام حداثتي كان يعيش في قرية مجاورة لقريتي شيخ صاحب طريقة إذا تحدّث الناس عنه قالوا إنه «يحل ويربط»، لأنه كان يحل الرصد ويربط القرينة ويطرد التابعة ويحجب صيبة العين وغير ذلك.

وحدث أن شاباً ترك ابنة عمه وخطب فتاة أخرى، فقصدت ابنة عمه الشيخ المذكور الذي أخذ خيط صوف ربطه وعقده عدة عقاقيد، فتعقّد الشاب ولم يستطع أن يقوم بواجبه نحو زوجته، ليلة عرسه. قيل إن ذوي الشاب اشتلقوا واستعطفوا الشيخ، فحلّ عقدة الخيط، فانحلّت عقدة الشاب.

وحكي أن رجلاً أبغض زوجته وخشيت أن يطلقها، فأخذت شعرة من رأس زوجها وشعرة من رأسها إلى الشيخ الذي ربط الشعرتين، فارتبط الرجل برباط محبة زوجته.

وكانت تعيش في قريتي امرأة اسمها «بدرا» كانت تربط لسان الوحش، فإذا فقد أحد القرويين عِجله مثلاً، ولم يجده

حتى المساء، لجأ إلى بدرا التي كانت تأخذ مقصاً وتمسحه بزيت زيتون وتسمي عليه، أي تذكر اسم الله، ثم تربط المقص بخيط صوف وتتلو التعويذة التالية:

ـ بجاه سيدنا سليمان وملوك الأنس والجان ينربط كل لسان، من سَوّ ومن عَوّ من إسّا لطلوع الضو.

هكذا تنربط ألسنة السَّوّ أي السوء، وألسنة العَـوّ أي الوحوش حتى الصباح، لا تقدر أن تفتح أفواهها لافتراس العجل المفقود طوال ذلك الليل، فإذا أقبل الصباح فتحت «بدرا» المقص فتنفتح أفواه الوحوش.

أولئك كانوا «أصحاب الحل والربط»[1] ومع مرور الزمن انقرضوا وحلّ محلهم بعض الزعماء يحلون ويربطون في شؤون السياسة، فصاروا «أصحاب الحل والربط» في هذا الزمان.

---

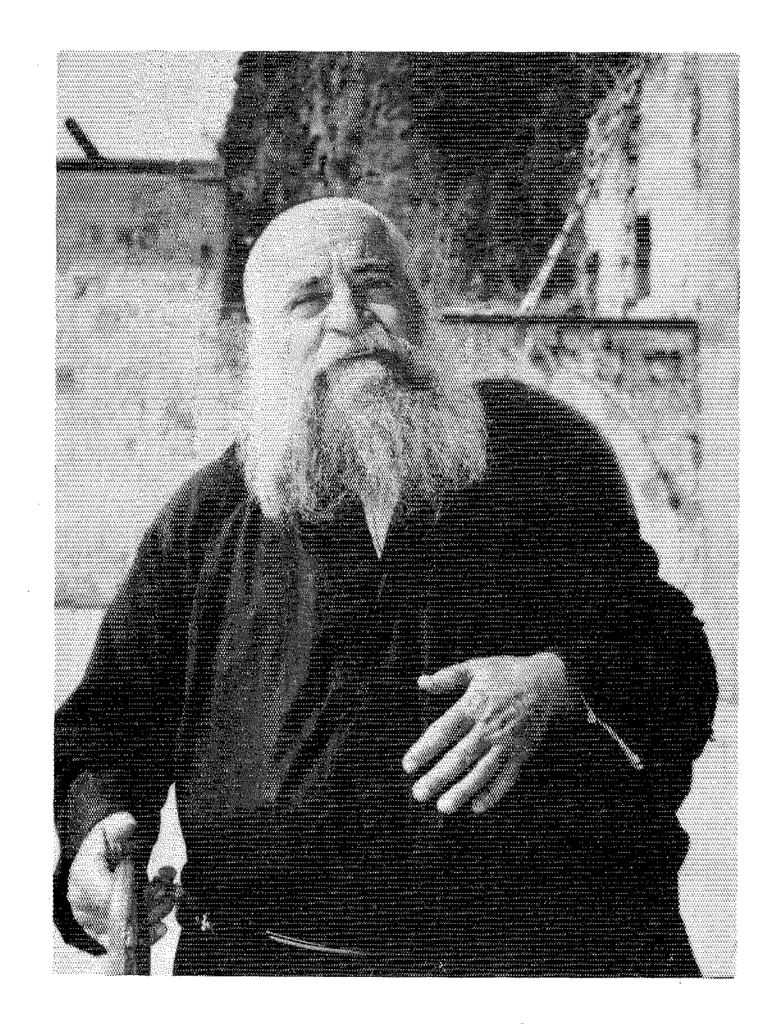
(١) توجد اسطورة طريفة عن «أصحاب الحل والربط» منشورة في كتابي «الناس بالناس».

مكسر عصا

صديق عتيق من جبل عامل يقول إن الرجل كان إذا غضب على زوجته تناول عصاه وهزَّها في وجهها، وكان أحياناً يهتّ ولا يضرب، فإذا حمي غضبه ضرب جرّة الماء بعصاه فكسرها. بهذه الطريقة كان يفش خلقه، يكسر الجرّة فيكسر الشر.

من هنا بدأنا نقول، إذا أراد أحد الناس أن يستبدّ بنا: «بدّو يعملنا مكسر عصا!» أي مثل الجرّة - فشّة خلق - يكسرها الرجل ولا ذنب لها.

ثم صرنا نعتبر انكسار الجرّة أو إحدى الأواني في البيت فألاً حسناً، فنقول إذا وقعت الكأس، مثلاً وانكسرت: «انكسر الشر».



أسِّس بيتك عالصخر بيثبت للدهر

مَن اشتَغَلَ عِندي وَأخذ كراه
لا هو شريكي، وَلا أنا مَولاه

في مطلع عهد الانتداب الفرنسي على لبنان، قام مستخدمو إحدى الشركات، في بيروت بإضراب عام، فأقدمت الشركة على صرف بعضهم. ورفعت القضية إلى المحكمة المختلطة (لبنانية فرنسية) لكون بعض المستخدمين كانوا من الأجانب.

فحاول رئيس المحكمة، وهو فرنسي، أن يجد تشريعاً لبنانياً، للنظر بموجبه في القضية، فلم يجد. فسأل عن الأعراف المحلية المتَّبعة في لبنان، في مثل هذه الحالة، فأشار المحامي الشيخ يوسف جرمانوس، أحد كبار المحامين، في ذلك الزمان، إلى مثل شعبي لبناني يقول:

ـ مَن اشتغل عندي وأخذ كراه، لا هو شريكي ولا أنا مولاه.

قيل إن الأمر تناهى إلى حاكم لبنان الكبير، يومئذٍ، القومندان «ترابو» الذي استأنس بالمثل وأشار باعتماده لاعتباره

عرفاً له قوّة القانون، وذلك للحكم بموجبه، في القضيّة المشار إليها، على أن توضع في ما بعد تشريعات حديثة لمثل هذه الحالة.

بنادم أسود راس

يقول الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار» إن بعض العرب كانوا يخاطبون الله بقولهم: «يا أبيض الوجه».

ومن أخبار الأولين ان الشيطان، عندما لعنه الله، صار أسود البشرة، هكذا يرسم رجال الفن صورته إلى يومنا هذا.

ويقول النبي داود في المزامير: «طهّرني بالزوفا فأطهر، إغسلني فأبيضّ أكثر من الثلج».

وفي مفهوم العرب أن السواد والقبح صنوان، وكذلك البياض والجمال، ولذلك قيل: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم».

ولعل أساس هذا المفهوم بدأ عند سكان الصحراء، حيث لوّحتهم الشمس بحرارتها وقهرتهم، فنشأ عندهم أن السواد محنة، وأن البياض نعمة من السماء.

وبقينا نستعير هذا المفهوم في كلامنا، فنقول: «فلان بيّض وجه بلاده في المهجر، وفلانة سوّدت وجه أهلها في القرية، وبنادم أسود راس، أي أحمق عديم التقدير».

صار بيناتنا خبز وملح

إذا مالحنا رجلاً، أي إذا تناولنا عنده طعاماً فيه ملح، نقول: «صار بيناتنا خبز وملح». أي أننا ارتبطنا مع الرجل بميثاق صداقة، لذلك يقول المثل: «الصدق ملح الرجال»، فإذا اختلف رجلان ثم تصالحا وجب أن يجتمعا إلى مائدة طعام عملاً بالقاعدة المأثورة: «لا مصالحة بلا ممالحة!».

يقول كتاب «المستعان في أخبار الجان» إن الله، عزّ وجلّ، عندما خلق أمة الثَّقَلين، أي الأنس والجن، لم يشأ لحكمة نجهلها أن يكون هنالك توافق بين طوائف الأنس وطوائف الجن، وجعل لطوائف الجن خصائص مختلفة عن خصائص الناس، منها أن الجن لا يستعملون الملح في طعامهم، خلافاً لبني البشر. فإذا دخل الجني بيت أحد الناس، خلسة، وأغراه الطعام الموجود فيه وأكل منه، صار ملزماً بصداقة صاحب البيت وبالوفاء له.

ويذكر مؤلف الكتاب قصص بعض الأشخاص الذين استدرجوا الجن إلى موائدهم واكتسبوا ولاءهم بواسطة الملح.

ومن الملح يشتق «المليح» بمعنى «المعروف»، يقول المثل: «إعمل مليح وإرمي بالبحر» و«المليح من الله والقبيح من عبد الله».

ومن الملح، كذلك، تشتق «الملاحة» بمعنى «الجمال والعفاف»، يقول المثل: «بنت مليحه ولا صبي فضيحه».

ويقول المثل اللبناني، أخيراً، عن ناكر المعروف: «ملحو عا طرفو يلعن شرفو».

حَاطِطْ بكَعَارو

سألت مستخدماً عن زميل له، قال: «تحطط المدير عليه، وبقي «حاطط بكعارو» حتى طيّرو».

ففهمت حالاً معنى «تحطط» وهي كلمة دارجة لا يوجد في الفصحى ما يفيد مضمونها، أما عبارة «حاطط بكعارو» فما زالت همّاً من همومي.

تبليط البحر

إذا نسبنا العجز إلى رجل يدّعي القوة، قلنا: «يروح يبلّط البحر». فما هي قصة تبليط البحر هذه؟.

يقول سكان الشواطىء: «رزق البحر للبحر»، أي أنه لا يمكن ردم جزء من البحر للاستفادة منه إذ لا بدّ أن يعود البحر في ساعة غضب ويستعيد الجزء المغتصب.

رجل واحد في بلادنا استطاع أن يغتصب جزءاً من البحر، هو أحمد باشا الجزار الذي ردم بالتراب مساحة معينة من الشاطىء قرب مدينة عكا.

وبناء على نصيحة أحد القرويين غرس الجزار في التراب المردوم كميات كثيفة من جذور نبات النجيل التي تشابكت وكوّنت طبقة متماسكة عجزت أمواج البحر عن تفتيتها.

ثم رصف الجزار الجزء المردوم بالبلاط، فقيل: «الجزار بلّط البحر!» واقترنت عملية تبليط البحر باسم الجزار وصارت من معجزات ذلك الزمان.

هذا، ويذكر شيخ من إبل السقي أن الجزار فرض يومئذٍ

على سكان القرى، في ولايته، أن يزوّدوه بكميّات من جذور النجيل كان نصيب إبل السقي منها عشرين كيساً.

مِسْكُ الخِتَام

إذا كلّفنا رجلاً بمهمة، وطلب إجرته منا عشرين ليرة، مثلاً، نقول: «عشرين ليره وحبّة مسك».

هكذا نتبرّع بحبة المسك ـ كلاماً بكلام ـ ويجهل البعض منا أن ثمن حبة المسك، في بعض العواصم العربية، ما زال يعادل ثمن بعض الحجارة الكريمة.

والمسك هو مادة عطريّة ثمينة تستخرج من محالب ذكر الغزال عند ذبحه، لها رائحة ذكية جداً، كان أجدادنا يستعملونها في تطييب لحاهم، لذلك، يقول المثل: «قالولو: قنطار مسك بلحيتك، قال: هالكثره مش للخير».

في ذلك الزمان كانت صالونات تزيين اللحى متوافرة في أكثر المدن، يعمد إليها سراة القوم، حيث يتم أولاً غسل اللحية، ثم تشذيبها، ثم صباغها بالحنّى، وبالتالي يتم تطييبها بالمسك.

فالمسك إذن هو خاتمة عملية تزيين اللحية. إلا أننا، مع مرور الزمن، استعرنا هذا الاصطلاح، وصرنا نقول عن كل خاتمة موفقة لحديث جميل: «إنها مسك الختام».

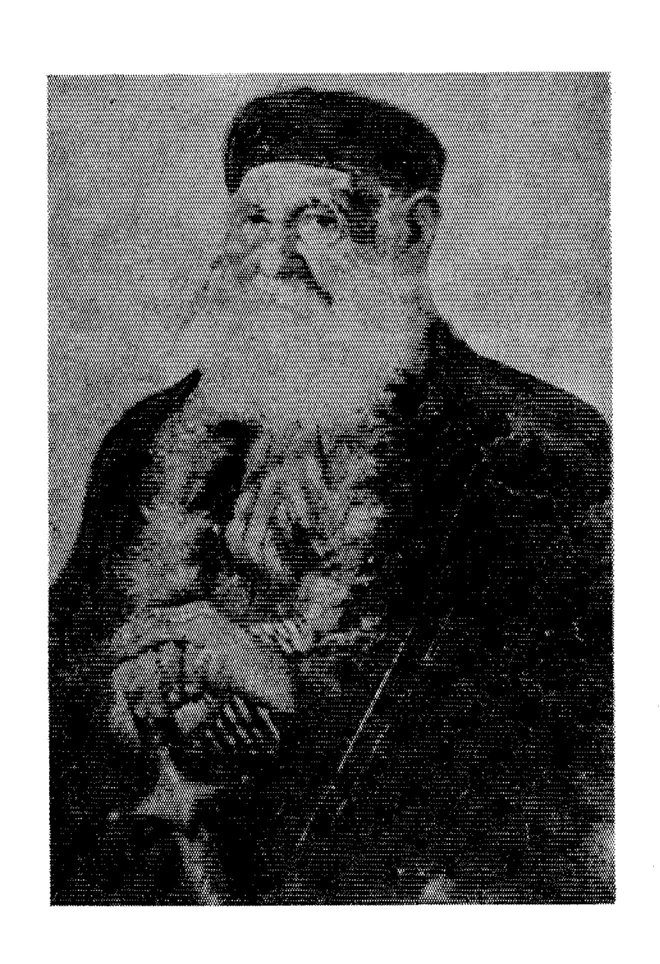
"مَشَّط لحيتو"

إذا تكلّمنا عن رجل وعد نفسه وأعدّها لتولي منصب رفيع قلنا إنه «يمشّط لحيته» لهذا المنصب.

قبل منتصف القرن الماضي، كان وجهاء القوم في لبنان يُطلقون لحاهم، لأنها كانت رمز كراماتهم. فإذا أرادوا تمشيط لحاهم عمدوا إلى صالونات تزيين اللحى، لأن استعمال المشط لم يكن شائعاً حتى ذلك الوقت.

يُحكى أن الأمير حيدر أبو اللمع، قائمقام النصارى، في عهد القائمقاميتين، كان أوَّل مَن استحضر بعض الأمشاط وأهدى بعضها إلى بعض المقرّبين منه، فكان أحدهم إذا جلس في مجلس تناول مشطه وأخذ يمشّط لحيته به أمام الناس، فيعلم هؤلاء أنه من أصحاب الحظوة عند الأمير.

وكان الأمير، يومئذٍ، في صدد تعيين مجلس إدارة من وجهاء البلاد، فإذا حدث أن تناول أحدهم مشطاً جعل يمشّط لحيته به أمام الناس، قالوا: «فلان يمشّط لحيته» أي أنه ربما صار عضواً في مجلس الإدارة.



أهل الكرامات إلهم علامات

وبقينا نستعمل هذه الاستعارة في كلامنا إلى يومنا هذا.

وقد أشار جريس صفا في مذكراته إلى أساس هذا الاصطلاح.

شايفْ حالو

إذا تكلّمنا عن رجل معجب بنفسه، قلنا إنه «شايف حالو».

حتى مطلع القرن الماضي، لم تكن المرآة الزجاجية معروفة وشائعة عند العامة في لبنان، فإذا حصل عليها أحد كبار القوم، حملها معه، وتناولها وجعل «يتمرّا» فيها أمام الناس، باعتداد وكبرياء، فيقال عنه «شايف حالو»، أي أنه يرى وجهه في المرآة، فيزداد إعجابه بنفسه.

ثم بقينا نقول عن كل رجل معتدّ بنفسه: «شايف حالو».

غراب البَيْن

يتشاءَم القرويون من نعيق الغراب ويطلقون عليه اسم «غراب البين».

كتاب «المستطرف» يلقي ضوءاً على أساس هذا التشاؤم.

عندما يترحل قوم، في الصحراء، يتركون وراءَهم ما يسمّى «دمنة»، وهي مجموعة مخلفاتهم ومخلفات دوابهم، فتغطّ الغربان هنالك تقتات مما تجده بين هذه المخلفات.

وكان يحدث أن يسعى أحد الرجال في إثر قومه، أو قوم حبيبته، ويظن أنهم في مكان معين، وإذا به من بعيد، يرى الغربان تحط وتطير فوق ذلك المكان، فيعلم أن قومه بانوا، أي رحلوا، فيحزن ويتألم.

ويقول كتاب «المستطرف» إن هذا هو أصل «غراب البين»، وهو كذلك أساس تشاؤم الناس من نعيق الغراب.

ويطلق بعض العرب على الغراب اسم «الفاسق»، لأنه، عندما أرسله نوح من السفينة ليكشف له عن منسوب المياه رأى جثة على وجه الغمر سقط عليها، فشغلته عن مهمته.

قيل إن نوح لعنه ودعا عليه أن لا يأكل - إلى الأبد - غير فضلات المزابل والجِيَف المنتنة.

مِثل جْراب الكِردي

يُحكى أن كرديّاً أراد أن يذهب إلى الحج، فجمع أشياءه الثمينة في جراب استودعه أحد جيرانه ريثما يعود من سفره.

عندما عاد، قال له جاره إنه فقد الجراب، وإنه مستعد أن يدفع ثمن محتوياته إلى الكردي، الذي أبى إلا أن يرفع الأمر إلى قاضي المدينة.

فسأله القاضي عن محتويات الجراب، فقال: فيه جواهر ونقود وخلاخل وعقود وعباءات وملاءات وصواني وأواني، وفيه سيوف مرصّعة ودروع مدرّعة وخناجر وطناجر، وفيه أربعة رماح مشرفية وخمس سجاجيد عجمية...

فصاح به القاضي: كفى! انت استودعتو جراب يما بنايه بخمس بواب؟

عَيني فيها وتفوه عليها

التين هو أحد أثمار الجنّة. به وعد الله عباده في الآخرة، وهو أشهى أثمار الأرض عند عرب البادية، حيث ينـدر وجوده.

يقول أبو قاسم عطيه من كفرحمام إن البدوي يغامر بدينه وكرامته من أجل أن يبلّ ريقه بأكلة تين، فإذا مرّ ببستان تين دخل وأكل، مهما كلف الأمر، ولذلك قال المثل: «عرب وتين يا قلّة الدين».

ومما يحكى أن بدوياً قدم إلى الشام وحظي بسلّة تين اشتراها ليأخذها إلى عائلته في اليوم التالي، وجاء بهـا إلى الخان، حيث ينزل مع جماعة من أبناء عشيرته. وإذ خشي أن يغافله هؤلاء ويطبقوا بسلة التين، لجأ إلى حيلة، فبصق على سلّة التين عدة مرات، بمرأى من رفاقه، لكي يقرفوا ويأنفوا منها.

ثم اضطر البدوي إلى أن يخرج لقضاء حاجته. وعندما رجع وجد أحد رفاقه واقفاً إزاء سلّة التين يُجيل النظر فيها مطوّلاً.

فسأله ماذا يفعل بقرب سلّة التين.

قال: «الكذّاب ملعون، عيني فيها وتفوه عليها».

فجرت عبارة البدوي مثلاً.

سَلَّم علينا مِن قفا إيدو

إذا مرّ بنا رجل من أصحاب الوجاهة وسلّم علينا متكلفاً، نقول: «سَلّم علينا من قفا إيدو».

وأساس هذا القول ان الرجل من أصحاب المقامات الدينية أو السياسية كان إذا مدّ يده مسلماً، يبسط كفّه أفقياً بحيث تكون راحة اليد إلى أسفل وقفاها إلى فوق، وتكون كفّ الزعيم فوق كفّ الرجل العادي، لا محاذية لها، والمقصود بذلك، استدراج الرجل العادي إلى تقبيل يد الزعيم، ولذلك نقول: «سَلّم علينا من قفا إيدو».

الكرسي بتنسّي

معلوم أن أكثر رجال السياسة يبدأون أحراراً مجاهدين، وينتهون أصحاب مصالح ممتهنين، في البداية يعتنقون الحريات الديموقراطية ويجاهرون بالمطالب الشعبية، فإذا جلسوا على كراسي الحكم نَسوا أو تناسوا. ومن هنا نشأ القول الشعبي المأثور: «الكرسي بتنسّي» ويبدو أن لهذه العبارة قصة:

يقال إن راهباً صغيراً، في أحد الأديرة، اسمه اندراوس، لجأ إلى حيلة خلال أيام الصوم والقطاعة، فكان يُخبّىء ما تصل إليه يده من البيض ويأكله خلسة عن رفاقه.

وجاء مَن يخبر رئيس الدير أن الأخ اندراوس حمل بيضة وخرج بها خارج سور الدير، فطلب الريّس من أحد الرهبان أن يتعقّب الأخ اندراوس ويضبطه بالجرم المشهود ويعود به إليه مع تقشيرة البيضة.

وذهب الراهب، وعاد بعد دقائق وقال: «سيدنا! الأخ اندراوس أكل البيضة... والتقشيرة» ـ جرت العبارة مثلاً ـ.

فغضب الرئيس واستدعى اندراوس ودعاه إلى الاعتراف، وأدخله وأجلسه على الكرسي الخاص بالاعتراف، وسأله: «ماذا كنت تفعل يا اندراوس، منذ ربع ساعة وراء سور الدير؟».

قال: «نسيت».

فانتهره الريّس وقال: «وهل يمكن أن تنسى بهذه السرعة ما كنت تفعله منذ ربع ساعة؟».

قال: «العجيب يا سيدي، أن هذه الكرسي تنسّي مَن يجلس عليها فلا يعود يتذكر شيئاً، وإذا كنت لا تصدّق إجلس عليها ودعني أسألك سؤالاً».

فجلس الريّس على الكرسي، واقترب منه اندراوس وسأله: «يا أبونا الريس! ماذا كنت تفعل مع حَنّه إبنة وكيل الدير، تحت الزيتونه، مساء أمس؟».

فنهض الريّس وقال: «معك حق، يا ابني، الكرسي بتنسّي!».

صار فينا مثل هذيك الحكاية

إذا علّلنا النفس بوعَد جميل لم يتحقق، قلنا: «صار فينا مثل هذيك الحكايه»، وأَحياناً نُضيف: «بقينا ناكل سمك حتى شبعنا فول».

أكرم أبو سعدى يروي قصة هذا المثل، في معرض حديثه عن خطط المسؤولين لتركيد المحرومين، قال:

كان لرجل فقير عشرة أولاد، وكان من شدّة فقره لا يستطيع أن يُشبعهم غير الفول الذي كانوا يتذمّرون دائماً من أكله.

فابتكر الرجل حيلة بارعة، وهي أن يحكي لأولاده حكاية جديدة مثيرة كلما جلسوا حول معجن الفول ـ بهذه الطريقة يصرف انتباه الأولاد بما يسمعون عما يأكلون.

وفي إحدى المرّات بدأ الرجل حكايته، قال: «ذهبت يوماً مع رفاق لي واصطدنا كمية من السمك وذهبنا إلى مكان فيه ظل وماء وجلسنا. . .»

وكان الرجل عند كل عبارة، يتناول لقمة فول، فيفعل أولاده مثله تلقائياً، ثم يقولون له: «وشو عاد صار؟».

فيقول: «جلسنا في ذلك المكان الجميل، وشوينا بعض السمك وقلينا البعض الآخر. . . .» فيُقبل الأولاد، بدون انتباه، على أكل الفول، ثم يسألون: «وشو عاد صار؟».

فيقول الرجل: «ثم صنعنا طراطوراً بحبحنا فيه الحامض والبقدونس، وسكبنا خمراً ووضعنا بعض المكسّرات، وأخذنا نأكل السمك مع الطراطور. . .».

فيسأل الأولاد أخيراً، وكانوا شبعوا من أكل الفول: «وشو عاد صار؟».

أجاب الرجل: «بقينا نأكل سمك حتى شبعنا فول».

وَيلي وطبيلي

زارتنا جارتنا أم سرور ومدّت علينا حديثاً، قالت: «شو بَدّي أعمل، «وَيلي وطبيلي»، إذا تهندمت بِكسف بناتي، وإذا تهاملت بصير متل حماتي».

سامحك الله يا أم سرور، بعد كان ناقصني «ويلي وطبيلي». سألت عنها قندلفت الكنيسة، قال: «ويلي». . . مين ما كان بيفهمها، و «طبيلي». . . عمرو ما حدا يفهمها.

ففهمت، واكتفيت بنصف الحقيقة.

قِصّة مزرابُ العَين

يُروى أن شاباً أقدم على كسر مزراب عين القرية فقبض عليه رجال الأمن وقدّموه إلى المحاكمة.

فسأله القاضي: لماذا كسرت مزراب العين؟

قال الشاب: كان والدي من أصحاب المروءة، وكانت هذه العين ملكاً له، عن أبيه وأجداده، فأنشأ لها حوضاً ودرجاً ومزراباً من ماله الخاص، وتبرّع بها للقرية. لكن أهل القرية لم يشكروا والدي في حياته ولم يرحموه في مماته، فانطفأ خبره. ولم أجد وسيلة أعيد بها اسم والدي على ألسنة الناس، سوى هذه الوسيلة، ففعلت ما فعلت لكي يقال: فلان ابن فلان كسر مزراب العين.

هذه هي قصة مزراب العين كما يرويها العامة في لبنان، لكن الأخ شاهين المسمار، يأبى أن يمر بهذه القصة المشهورة مرور الكرام ويحاول أن يتعمق في فهم دلالتها.

يقول الأخ شاهين، إن العامة إذا ذكروا اسم أحد

موتاهم قالوا إن نفسه طلبت الرحمة، فيرحمونه بقولهم: المرحوم فلان، أو فلان الله يرحمو. حتى ولو ذكروا اسمه بسوء.

وهو يعني أن الناس لا يفطنون إلى وجوب الترحّم على أحد الموتى، إلا إذا ذكروا اسمه. ولذلك ـ يقول شاهين ـ أقدم الشاب على كسر مزراب العين، لكي يقال: فلان ابن المرحوم فلان كسر مزراب العين.

ابن الحلال عند ذكرو بيبان

من مشاغل العلم الحديث معرفة ما إذا كان صحيحاً أم غير صحيح وجود حاسة تجعل الإنسان يشعر أحياناً بقدوم إنسان آخر قبل أن تراه عيناه، أم أن ذلك يتم بالصدفة.

لكن يبدو أن هذا الموضوع كان يشغل بال العامة من اللبنانيين منذ وقت طويل، فقد يحدث أن نبدأ حديثاً عن رجل لا يبرح أن يدخل فنقول: «ابن الحلال عند ذكرو بيبان».

القسم الخامِس

من كل وادي عصا

لو كان فيها خيرٌ ما رَماها الطّيرْ

«والطير» هنا هو الباز أو الصقر المتسلط على سائر الطيور والذي ما زال شيوخ الصحراء العربية يدرّبونه ويستعملونه لاصطياد سائر بني جنسه، وهم يطلقون عليه اسم «الطير».

ومما يروى أن «الطير» يصطاد جميع أنواع الطيور ويأتي بها إلى صاحبه، ما عدا البومة التي ما أن يقبض عليها، حتى يشتمّ رائحتها الكريهة، فيقتلها ويرميها ولا يعود بها إلى صاحبه.

لذلك يقال عن البومة: «لو كان فيها خير ما رماها الطير».



وهذاك وجه الضيف

الدنيا حكّ جحاش

سنة ١٩٤١ اجتازت القوّات الانكليزية حدود لبنان، من فلسطين، واجتاحت بعض المناطق الجنوبية وجعلت قرية إبل السقي مركزاً لقيادتها.

وطلب القائد الانكليزي أن يجتمع بوجهاء القرية، فلبّوا طلبه. قال القائد ما معناه إن الانكليز خاضوا الحرب حباً بالسلام، وعلى الشعوب المحبة للسلام أن تتعاون مع الانكليز، لما فيه خير الجميع.

فتنطّح أحد وجهاء القرية وقال: كلامك عالراس والعين، يا حضرة القائد، نحنا مستعدين نتعاون معكم ما زال في منفعه متبادله، والمثل بيقول: الدنيا حك جحاش، حِكّلّي وبحكّلّك!

فاستهجن الحاضرون، ولم يتورّع بعضهم عن الضحك، وكنت أَتولّى الترجمة، فشعرت بحرج شديد، خشية أن يثير ضحكهم مزاج القائد الغريب، واستدركت وقلت إننا قرويون وقد اكتسبنا من عشرة الحيوانات بعض الحِكَم وبنينا عليها

بعض الأمثال، فالحمار، مثلاً يستطيع أن يحك جميع أَعضاء جسمه، ما عدا ظهره، لذلك كلما التقى حماران عاريان تولى الواحد منهما، بحكم غريزته، حك ظهر الآخر بأسنانه، لذلك نقول، في معرض كلامنا عن تبادل المنفعة: الدنيا حَك جحاش، حِكّلي وبحكّلّك.

فانشرح خاطر القائد الانكليزي وقال: هذا كلام جميل جداً، وأجمل ما فيه أننا، في بلادنا نستعمل هذا المثل، فنقول: حِك لي ظهري، وأنا أحكّ لك ظهرك. إلا أننا لا نعرف أساس هذا المثل.

وأردف القائد قائلاً: سأكتب، الآن، في يومياتي، أن على الانكليز أن يبحثوا في لبنان، عن بعض جذور حضارتهم المنسية.

فقلت في نفسي: «لا حول ولا قوة... كانت تنقصنا هذه المصيبة، في هذه البلاد، وهي أن نتعرض في وقت قريب، لغزوة استعمارية للتنقيب عن حسابات منسية في دفاتر أجدادنا القروية».

* * *

هذه القصة وقعت منذ زمن بعيد. لم يكن أدب العامة، يومئذٍ من إهتماماتي. وعندما بدأت أبحث، بعدئذٍ عن جذور حضارتنا الشعبية، فطنت إلى جواب القائد الانكليزي،

وقلت، لا بدّ أن تكون هنالك مأثورات وحِكَم وأمثال مشتركة بين بعض شعوب الأرض، ولا سيما حيث تفاعلت حضارات الشعوب بعضها مع البعض الآخر.

شخشبة أفكار

الحاج فضل سرور درس التوراة على طريقته، قال: قرأتها أربع مرّات، رَوْحه رجعه، وفهمت المفهوم وغير المفهوم.

فسألتُه عن غير المفهوم، قال: الله كبير، ما عندو إيد وإجر، بس بينخاف رجال الدين يشخشبولو فكارو.

لعب الفار بعبّو

في الطائرة من باريس إلى لندن، تعرّفت على رجل إسباني يعيش في انكلترا، منذ الثورة الإسبانية. تحادثنا في السياسة، وسألته عما إذا كان سيعود إلى بلاده بعد وفاة الجنرال فرانكو، قال: نحن الاسبان، عندنا قول مأثور، معناه: يا رب خذنا! يا رب جيبنا! يا رب ردّنا إلى بلادنا.

فقلت: هذا الكلام يذكّرني بقول مأثور عندنا، نحن اللبنانيين هو: يا رب شيلنا! يا رب حطّنا! يا رب خلّينا على ما نحن عليه.

وكانت زوجتي تشاركنا الحديث، فقالت إن هذا القول المأثور مبني على أساس أسطورة تقول إن ناسكاً أنقذ فأرة مهشّمة من براثن أحد الكواسر ووضعها في عبّه لتدفأ فيه وتستعيد رمقها.

وشعر الناسك بحنوّ غريب نحو الفأرة، فناجى ربّه وطلب منه أن يحوّل الفأرة إلى فتاة يجعلها الناسك ابنته، فتسليّه في وحدته.

ثم تصور الناسك أن ابنته العتيدة هذه ستكون، ولا شك، أجمل فتاة بين الفتيات، وأخذ يفكّر في مستقبلها، قال: سأزوّج ابنتي إلى أعظم شيء في الدنيا.

وكان البدر، آنئذٍ، يتهادى في قبة السماء، فظن الناسك أن القمر هو أعظم مَن في الدنيا، فقال له: أنت أعظم مَن في الدنيا، تعال فأزوّجك ابنتي. قال القمر: ولكن السحاب أعظم مني، لأنه يغطيني، ساعة يشاء، ويحجب نور وجهي.

فتوجه الناسك إلى السحاب، وقال له: بما أنك أعظم مَن في الدنيا، تعال فأزوّجك ابنتي. قال السحاب: لا بل إن الريح أعظم مني، لأنه يأخذني ويردّني أينما يشاء.

فقال الناسك للريح: إذن أنت أعظم مَن في الدنيا، وأنا أريد أن أزوجك ابنتي. قال الريح: ألا تعلم أيها الناسك أن الجبل أعظم مني، لأنني أعصف فيه، منذ الأزل، ولا أستطيع أن أزحزحه من مكانه.

وكانت الفأرة ما تزال في عب الناسك، تسمع وتفهم وتحلم أن يجعلها الله فتاة ويرفعها إلى أعلى مرتبة ويزوجها أعظم مَن في الدنيا.

والتفت الناسك، أخيراً، إلى الجبل وقال له: بما أنه ثبت عندي، أخيراً، أنك أَعظم مَن في الدنيا، لذلك قررت أن أزوجك ابنتي.

قال الجبل: ولكن، بكل أسف، إن الفأر أعظم مني، لأنه يحفر أنفاقه في جوفي ويسرح ويمرح في أحشائي، ولا أظن أنك ستجد في الدنيا مَن هو أعظم من الفأر، فتزوجّه ابنتك.

فهتفت الفأرة، عندئذٍ، في عب الناسك: يا رب شيلني! يا رب حطّني! يا رب خلّيني على ما أنا عليه.

وجرى قول الفأرة كلاماً مأثوراً إلى يومنا هذا.

هكذا روت زوجتي هذه الأسطورة، كما ترويها عجائز قريتي، لا كما وردت، أساساً، في كتاب «كليلة ودمنة». فضحك رفيقنا الاسباني وبادَلنا الحديث بأسطورة أُخرى.

قال إن ناسكاً عثر على فأرة شاردة أنهكها الجوع والتعب والبرد، فعطف عليها، وخبأها في عبّه لتدفأ فيه وتستعيد أنفاسها وأخذ يصلي بحرارة إلى الله أن يعيد إلى الفأرة رمقها، لكن بدون جدوى، لأن الفأرة، بقيت بدون حراك.

ثم تحركت الفأرة فجأة في عب الناسك وقفزت منه وراحت تلعب وتمرح في صحن الدار، وبدا أنها اشتمّت رائحة فأر ذكر في إحدى الزوايا، فدبّت الحياة فجأة في عروقها، وهبّت تجري إليه.

فصحتُ عندئذٍ، في وجه الاسباني: هذه من أساطير بلادي، نحن نقول في مثل هذه الحالة: لعب الفار بعبّو. لعلّنا نسينا الأسطورة واحتفظنا بالقول المأثور.

مِن عِظَامِ الرَّقَبَة

في بلاد الانكليز حظيتُ بسيدة تعنى بجمع القصص القديمة، فروت لي بعض الأساطير، منها أسطورة تقول إن إحدى النساء انقطعت مع ابنتها الصبيّة، في جزيرة نائية خالية من السكّان، وانقطع كل أمل للمرأة في أن تجد زوجاً لابنتها.

وأشفقت المرأة على ابنتها وتضرّعت إلى الله بحرارة أن يخلق، بحكمته، زوجاً لابنتها. فأنزل الله سباتاً عميقاً على المرأة، وأخذ عظمة من عظام رقبتها وجعلها رجلاً صار صهر المرأة، لذلك تحب المرأة صهرها كثيراً، وتقول: إنه من عظام رقبتي.

فهتفتُ، عندما سمعت هذه القصة: «وجدتها». - كما قال أرخميدس في قديم الزمان - فنحن نقول، في لبنان، عن كل مَن هو حبيب وقريب إلى قلوبنا: إنه من عظام الرقبة.

ثم ان هذه الأسطورة تحمل رائحة أجدادنا الكنعانيين وتذكرنا بقصة خلق حواء، كما وردت في التوراة، ألم ينزل الله سباتاً على جدّنا آدم وينتزع ضلعاً من أضلاعه ويجعله زوجة ...

لا يموت الذيب ولا يفنى الغنم

بين مذاهب الفلسفات ما يُسمى فلسفة الأضداد، فالشرّ ضد الخير، والرذيلة ضد الفضيلة، والشيطان ضد الله، وجهنم ضد الجنّة، والظلام ضد النور، حتى قيل إن المرأة ضد الرجل، والنَّفس ـ الأمّارة بالسوء ـ ضد العقل المنزّه عن الخطأ.

وخلاصة القول إن استمرارية الوجود رهن باستمرارية تفاعل الاضداد، فإذا بَطُل عمل الاضداد انتهى الوجود.

وفي أساطير قدماء الاغريق جذور عميقة لهذه الفلسفة.

تقول إحدى الأساطير إن الآلهة خلقت الخروف، وخلقت الذئب ضدّاً له. ثم وجدت أن الذئب قد يقضي نهائياً على الخروف وعلى نسله، فيبطل بذلك عمل الأضداد، فأوجدت الآلهة ضد الضدّ وهو الكلب، وأعطته قوة محدودة يستطيع بموجبها أن يحمي نوع الغنم من الفناء، ولا يستطيع ـ أي الكلب ـ أن يقضي على الذئب، ليبقى عمل الأضداد قائماً.

وهذه الأسطورة تذكّرنا بقول لبناني مأثور. فإذا أردنا أن نحلّ خلافاً بين فريقين، بحيث لا يقع غبن على فريق دون فريق، قلنا: حتى لا يموت الذيب ولا يفنى الغنم.

قدّ بساطك مدّ إجريك

الحاج مقبل طباجه له فلسفته الخاصة في الناس، قال: «الناس فئتان: فقير وغني، والفرق بينهما بسيط جداً: الفقير، قدّ بساطو بيمد إجريه، والغني، قدّ إجريه بيشتري البساط».

أكثر من القرد ما مسخ الله

يقول بعض علماءالغرب إن الإنسان كان قرداً، ثم تطور وارتقى وصار بشراً سويّاً، في حين يقول بعض فلاسفة الشرق إن القرد، إنما كان إنساناً تعاطى فن التمثيل فغضب الله عليه ومسخه قرداً زريّاً.

ويروي كتاب «الميثولوجيا والأدب» أن الله، عندما خلق الناس أراد أن يجعل لكل إنسان مهنة يتعاطاها، لكي تعمر الأرض وتزدهر بأعمال الناس، فتعاطى كل إنسان عملاً معيّناً كالزراعة والحياكة والصيد ورعاية الماشية والحرب، وما أشبه ذلك.

أما القرد، وهو إذ ذاك إنسان مثل سائر الناس، فقد تعاطى مهنة التمثيل، وصار يقلد حركات الناس وسكناتهم، دون أن يقدم إلى المجتمع شيئاً مفيداً. أضف إلى ذلك أنه حاول أن يقلد حركات العزّة الألهية.

فاستدعاه الله ونهاه عن هوايته تلك. لكن القرد، وهو

أول مَن تعاطى فن التمثيل، لم يذعن لمشيئة الله، فغضب الله عليه ومسخه حيواناً حقيراً.

وتقول الأسطورة ان القرد، بعد أن صار حيواناً، بقي على ضلالته، وجعل يقلّد حركات الناس بمهارة وإتقان، فجاءَ مَن يقول له: لماذا هذه المكابرة، ألا تخاف من غضب الله؟

قال القرد: وماذا عساه أن يفعل بي أكثر مما فعل؟

والغريب بالأمر، أننا في لبنان، نستعمل قولاً مأثوراً، ربما كان مبنياً على أساس هذه الأسطورة الهندية، وفي نفس المعنى تقريباً، فنقول: أكثر من القرد ما مسخ الله!

قوم بِلا جهّال ضَاعت حقوقهم

في رأس شارع جان دارك، عتّال عتيق يحتلّ الزاوية، منذ سنوات. كلّفته، يوماً مهمّة، وعندما أنس مني تلطّفاً نحوه، أراد أن يمد معي حديثاً، فسألني: «شو بتقول الجريدة اليوم؟».

قلت: «ياسر عرفات يدعو إلى السلام في أميركا، والفلسطينيون الفدائيون يقتلون الإسرائيليين في بيوتهم».

فانشرح خاطر الرجل وقال: «ايه، هالمرّة صاروا الإخوان الفلسطينيي يفهموا بالسياسة، نحنا بجبل الدروز منقول: قوم بلا عقّال راحوا قطايع، وقوم بلا جهّال ضاعت حقوقهم».

وأضاف أخونا العتّال: «هَيك يا خواجه، العاقل يعقل، والجاهل يجهل، كل واحد إلو دور، وكل شي بوقتو مليح!»

ثم نقلت الحديث إلى الصديق الشيخ بديع تقي الدين، فذكّرني بما يُسمّى «قبة باط» عند العامة. فإذا تعذّر على «أصحاب الحل والربط» أن يحلّوا، أو أن يربطوا أمراً ما،

«بالتي هي أحسن». «قبّوا باطاً» ـ أي غضوا النظر ـ فيتولّى الجهّال حلّه أو ربطه، «بالتي هي أسوأ».

ثم نشرت هذه القصة، في جريدة النهار، تحت موضوع: «قوم بلا عقّال راحوا قطايع، وقوم بلا جهّال ضاعت حقوقهم». فاتصل بي، في اليوم التالي، المرحوم عبد الله النجار، وقال إن هذا القول المأثور له قصة تُذكر فتُنشر.

ـ هبط إلى دمشق، شيخ جليل، من مشايخ وادي العجم ـ أو وادي التيم، حسب ظن الراوي ـ وبات في أحد خانات المدينة. وكان يتمنطق بكَمَر فيه خرجيّة السفر، وضعه تحت وسادته، في أثناء الليل، وعند الصباح خرج في حاجة نفسه، وعاد فلم يجد كَمَره. فراجع صاحب الخان في الموضوع. فقال له هذا: «إذهب فتِّش عن كمرك حيث أضعته، إذ كان يجب عليك أن تستودعني الكمر، فأكون مسؤولاً عنه».

فقال الشيخ: «لا حول ولا قوة...» وقرر أن يعود، توّاً، إلى قريته، فاعترضه الرجل، وطالبه بِكراء الخان ـ أي بدل المنامة ـ وإذ لم يبق مع الشيخ ما يبرىء من ذمّته به، فكّر قليلاً... وحك جبينه... ثم أخذ شعرة من لحيته، وقال لصاحب الخان: «هذه شعرة من لحيتي، اجعلها رهناً عندك، حتى ارسل إليك كراء الخان».

ورجع الشيخ إلى قريته. وبعد يومين، حظي برجل ذاهب إلى دمشق، فقال له: «يا معوّد! خذ هذه البشالك

الثلاثة، واذهب إلى الخان الفلاني، وحاسب صاحبه، واطلب منه أن يبرىء لي ذمّتي، وأن يُسلّمك شعرة من لحيتي تركتها رهناً عنده».

ومضى الرجل، إلى الخان وقال لصاحبه: «هـذا كِراء الخان من الشيخ فلان، أبرىء ذمّته معك، وأعطني شعرته المرهونة عندك».

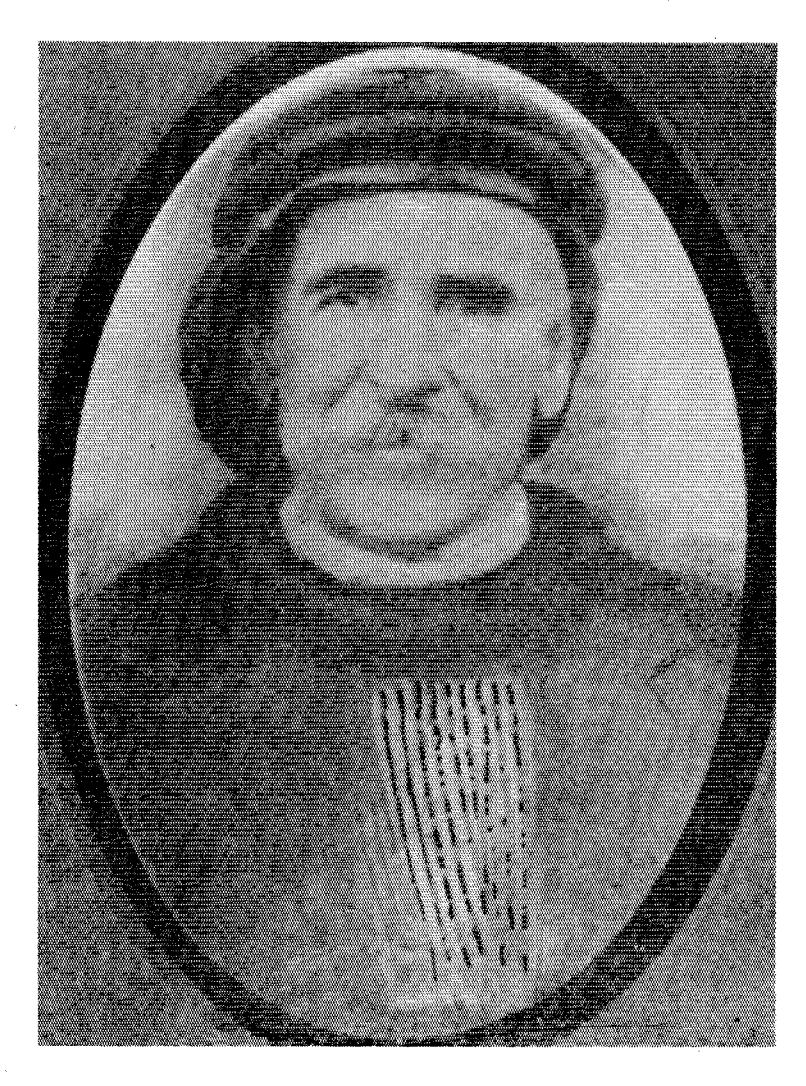
فضحك صاحب الخان، وقال: «ما أقل من عقلك، غير عقل الشيخ الذي أرسلك، سلّم على صاحبك الشيخ، وقل له أن يأتي ويفتّش عن شعرة لحيته في مزابل المدينة».

وعاد الرجل إلى القرية، وروى ما حدث له مع صاحب الخان، فاشتد غضب الشيخ، وأقسم بحلق لحيته، أو الثأر لكرامته.

وجاء عقلاء القرية، يطيّبون خاطر الشيخ، ويتبادلـون الرأي في اتخاذ أي تدبير يحفظ كرامته، قالوا: «نتقدّم بشكوى إلى أحد قضاة الشام، لا بل نرفع عريضة إلى الوالي، لا بل يجب أن نطلع زعماءَنا على حقيقة أمرنا. . .».

ودامت اجتماعات ومشاورات العقلاء، عدة أيام، بدون جدوى.

أخيراً، وبعد منتصف إحدى الليالي، قُرع باب الشيخ، فنهض وفتح. فوجد ثلاثة شبّان مُلثّمـين، ناولـوه جرابـاً،



قوم بلا عقّال راحو قطايع

وتواروا بسرعة ـ لا سلام ولا كلام ـ فدخل الشيخ . . . وأضاء السراج . . . وفتح الجراب، وإذا برأس غريمه صاحب الخان، داخل الجراب.

وتبينّ، في ما بعد، أن بعض شبان القرية، عندما شعروا بعجز عقلائهم عن ردّ اعتبارهم، تسللوا سراً إلى دمشق، وفتكوا بصاحب الخان وجاؤوا برأسه.

قبل هذه الحادثة، كان عند العامة، في بعض المناطق الجبلية، قول مأثور هو: «قوم بلا عقّال، راحوا قطايع»، لأن العقّال يعملون، دائماً، على جمع كلمة قومهم، فلا يتفرق رأيهم، ويروحون قطايع.

يقول الراوي، وبعد هذه الحادثة، صار القول المأثور: «قَوم بلا عُقّال راحوا قطايع، وقوم بلا جهّال ضاعت حقوقهم».

بيعُو بقرِد ومَقْرعَة!

إذا قرف اللبناني من أحد مقتنياته، وأراد أن يتخلّص منه، بأي ثمن كان يقول: «سأبيعه بقرد ومقرعه».

الصديق فندي ابو سيف، عنده قصة طريفة يقول إنها أساس هذا القول المأثور، ونحن ننشرها هنا، إن لم يكن لصحّتها، فلطرافتها.

يُحكى أن رجلاً من جبل لبنان، هاجر إلى حوران، حيث اشتغل عدة سنوات، عاد بعدها إلى قريته، بِجَمَل.

ولم يكن اقتناء الجمل شائعاً في المناطق الجبلية من لبنان، في ذلك الزمان، فتحَوكم أهل القرية حول الجمل يتفرّجون، وطفق الرجل يطري مزايا جمله.

- إنه يحمل ثلاثة أضعاف حمل الحمار.

- تستطيع تحميله وهو راقد.

- يأكل الشوك ويشرب مرة واحدة في الأسبوع.

ـ لا يحرن ولا يرفس ولا يقيقب ولا يعنفص، ويستطيع الولد أن يجرّه إلى حيث أراد.

وأقبل من جملة المتفرجين زعيم كبير، راكباً على جواد كريم، ورأى وسمع وترجّل وتقدم وعرض على صاحب الجمل مداكشته بفرسه الأصيل، فرفض.

لكن صاحبنا هذا، صاحب الجمل، ما لبث أن فطن إلى أن باب بيته أوطى من ظهر الجمل، ونحن على أبواب الشتاء، ويجب تأمين مأوى للجمل، ولا مناص من هدم أحد جدران البيت وفتح باب جديد عالٍ، والمثل يقول: «اللي بيعمل حالو جمّال بدّو يعلّي باب دارو». وفي ذلك ما فيه من مشقات وتكاليف، فأرسل ابنه إلى صاحب الفرس يقول: «الوالد راجع أفكاره، وقَبل مداكشة الجمل بالفرس».

فقال صاحب الفرس: «وأنا راجعت أفكاري، وأريد أن أحتفظ بالفرس، لكن عندي هذا الكديش، لعل والدك يقبل مداكشته بالجمل».

فرفض صاحب الجمل.

ثم ثبت عند صاحبنا هذا، أن جمله لا يصلح للعمل في تلك المنطقة الجبلية، لأن أقدامه لا تساعده على السير في المسالك الموعرة والطرق المتعرّجة، وبالتالي، لا خير فيه يرتجى، فأرسل ابنه، مجدداً إلى صاحب الكديش يقول: «الوالد راجع أفكاره، وقبل مداكشة الجمل بالكديش».

فقال صاحب الكديش: «وأنا كذلك، راجعت أفكاري ووجدت أني ما زلت بحاجة إلى الكديش، لكن عندي هذا الجحش الكّر لعل والدك يقبل مداكشته بالجمل».

فرفض صاحب الجمل.

ولم يمضِ وقت طويل، حتى أخذ يشعر بأعباء مسؤولية الجمل، إذ عليه أن يرعاه في النهار وأن يؤمن له عليقاً في المساء، حتى صح فيه قول المثل: «أكل ومرعى وقلّة صنعه».

فجرّ الرجل جمله، ذات صباح، لعند صاحب الجحش وقال له: «أنا محسوبك، بدّي صفو خاطرك، الجمل مقدم، بارك لي بالجحش».

فقال صاحب الجحش: «ولكنني تذكّرت المثل القائل: «إذا زمانك جار داكش فرسك بحمار». فتشاءمت وخِفت من جور الزمان، فدعني وشأني وخذ جملك واذهب عني».

هكذا لزق الجمل بذقن صاحبه، كما تقول العامة، وبدأ أهل القرية يشمتون به:

ـ يا بو مسعود، عندي جدي أعرج، بتداكش؟

ـ يا بو مسعود، عندي قرقه وشرشوح قراد العش، بتداكش؟

ـ يا بو مسعود، عندي كلب جعاري ختيار، لا بيهش ولا بينش، بتداكش؟

ويا ويل مَن استوطى حيطه أهل قريته، فركّبوا مقلته، وعملوه شغلتهم وعملتهم:

ـ يا جماعه، بو مسعود، غاب وجاب.

ـ يا عمي، بو مسعود ترقّى: استكبر ونقّى.

ـ عليم الله، بو مسعود صار شيخ، بدو يعلّي باب دارو.

أخيراً قرر بو مسعود أن يتخلّص من الجمل بأي وسيلة ممكنة.

* * *

وحدث أن قدم إلى القرية، رجل غريب، معه قرد يؤدي بعض الرقصات، ويقلّد بعض الحركات، فيجمع الرجل بواسطته بعض المتاليك والبارات، فاستفرده صاحبنا، وعرض عليه «مداكشة الجمل بقرد ومقرعه!».

والمقرعة هي قطعة حبل مشدودة إلى عصا قصيرة، يحملها الرجل في يده، لإخافة القرد وإرغامه على تأدية الرقصات والحركات المطلوبة.

اخْتَلَطَ الحابِلُ بالنَّابِلِ

يروي نبيه غطاس قصة الفتاة التي جاءت لعند جدّتها العجوز وهي تبكي. وبعد جهد جهيد استطاعت العجوز أن تفهم سبب بكاء الفتاة التي قالت إنها «حبلى شوي». فقالت لها جدتها: يا تقبري ستّك كل شي ممكن يكون شوي إلا الحبل: يا حَبَل يا نَبَل.

وهذه القصة تذكّرنا بالمثل القائل: اختلط الحابل بالنابل. وأصل هذا المثل هو أن المعّاز، بعد موسم عشار الماعز، يعرّب المعاشير من غير المعاشير ليبيع غير المعاشير ويحتفظ بالمعاشير منها، وتُسمّى المعاشير «حابل» وغير المعاشير «نابل».

ويحدث أحياناً أن تختلط المعاشير مع غير المعاشير فيستاء الراعي ويقول: اختلط الحابل بالنابل.

وهذا المثل معروف عند العرب وشائع على ألسنة كتّابهم.

المَلاحِم في أَدَبِ العَامة

في أدب العامة، عند اللبنانيين، ملاحم، كما عند سائر الشعوب، وكما هي قصة عنتر وسيرة بني هلال عند العرب.

وتكون الملحمة غالباً، من نسيج خيال العامة، وتدور حول شخصيَّة بطل تتجسد فيه احلامهم وتشوّفاتهم إلى الشهرة والمجد والكرامة.

ومَن يقرأ قصة عنتر، يجد أن هذا البطل العربي العظيم، خاض غمار أكثر حروب العرب، خلال عدة قرون، حتى أنه اشترك في الحروب الصليبية، وتزوج أخت ملك رومه، من بنات الافرنج، فحملت منه وولدت البطل العظيم ريكاردوس قلب الأسد.

وفي بحثي عن أدب العامة في لبنان، حظيت بعدة ملاحم، اكتفي الآن بنشر إحداها، وهي قصة البطل «عيد الفيكي» الذي تواترت اخباره، على ألسنة شيوخ وعجائز قريتي إبل السقي، عشرات، بل ربما مئات السنين.

* * *

عاش في إبل السقي، في ما مضى من السنين، شاب اسمه «عيد الفيكي» طول قامته اثنا عشر شبراً، وفي يده اليمنى ست أصابع، وفي كل أصبع أربع عقاقيد. وقد ولدته امه يوم عيد العنصرة، فسمته «عيد».

في ذلك الزمان، كان عند سلطان بني عثمان، «مصارعجي» عبد أسود اسمه «الصنديد»، غلب كل من قال «انا»، في عاصمة السلطنة، فنشر السلطان تعميماً، في جميع أنحاء سلطنته، يطلب فيه من حكّام المقاطعات أن يبحثوا عن جبابرة الرجال، ويرسلوهم إليه، ليصارعوا الصنديد، لأن التفرّج على صراع الجبابرة كان من هوايات السلاطين.

وحدث في أحد الأيام أن مر عيد الفيكي في «مرج الخوخ»، قرب إبل السقي - وهذا هو اسم المكان حتى الآن - حيث كانت هناك عدة أشجار خوخ قديمة، فوجد شجرة يابسة، أمسك بساقها واقتلعها من جذورها، ونهض بها وحملها على كتفه، ليعود بها إلى بيته.

وصدف أن مرّ، في تلك الساعة، الأمير الشهابي، حاكم «وادي التيم» في ذلك المكان، ورأى ما كان من عيد الفيكي، وكيف أنه اقتلع الشجرة من جذورها، فاستدعاه، وعرض عليه أن يذهب إلى اسطنبول، ويصارع العبد صنديد، فإذا انتصر عليه نال رضى السلطان.

وكانت عند عيد كلبة سوداء اسمها «سرَوِه» ترافقه اينما

ذهب، فقالت له أمه، عندما ودّعته: خذ «سروه» معك، فإذا عدت إليّ سالماً، عادت معك، وإذا، لا سمح الله، أصابك مكروه، تعود «سروه» وحدها، فأعرف عندئذ أنك مُتّ، وأُسلّم أمري إلى الله.

وسافر عيد إلى اسطنبول، ومعه الكلبة، وبعد أن استراح عدة أيام، أحضروه إلى ميدان قصر يلدز، حيث تربّع السلطان، على منصَّة في صدر المكان، وحوله الأمراء والوزراء والأعيان، وإذا بعبد أسود مديد، يُطل على الحلبة من بعيد، ويصيح: «أنا الصنديد، قاهر كل جبار عنيد، صحايف على كل مَن قال «أنا»، تركي عربي، قيسي يمني، ساحلي جبلي».

فصاح به عيد الفيكي: قُلْ «ساحلي» ولا تَقُلْ «جبلي».

قال العبد: ومَن أنت؟

قال عيد: أنا عيد قاهر كل صنديد.

قال العبد: هل عندك أم تبكي عليك؟

قال عيد: البكاء فوق رأس الميت.

قال العبد: هل كتبت وصيّتك؟

قال عيد: سأكتبها بدمك.

فتطاير الشرر من عيني العبد صنديد، وهجم على عيد. لكن عيد كان أسرع منه، فأغرز أصابعه في بطن الصنديد، وسحب مصارينه من كرشه، فخر العبد صريعاً.

كان السلطان ينتظر ظهور بطل جديد، يقهر الصنديد،

فأمر بإدخال عيد إلى قصره، وإلباسه أفخر الملابس، وتكريمه، ثم إحضاره إليه بعد أسبوع.

وبعد أسبوع أُدخل عيد الفيكي على السلطان، فأنعم عليه بخلعة وسيف وفرس وخرجيّة، وسمح له بالعودة إلى بلاده.

أما الكلبة «سروه»، فقد بقيت خارجاً بعد إدخال عيد إلى بلاط السلطان، وعندما يئست منه، عادت أدراجها، من حيث أتت.

وعندما وصلت الكلبة وحدها إلى إبل السقي، وَلْوَلَت أم عيد. ومزقت ثيابها ولطمت صدرها وشحّرت وجهها، وتفجّعت. فهرعت إليها نساء القرية يؤآسينها، وكانت أم عيد، شاعرة ندّابة ـ حتى تتم القصة ـ فعصبت جبينها بعصابة سوداء وجلست بين النساء تندب وحيدها بأبيات، من مقام الفراقيَّات، على الوزن الخفيف:

وَينو يا «سَروِه» عيد
قالت: بعيد بعيد
سافر على اسطنبول
تا يصارع الصنديـ
سافر على اسطنبول
وسفرتو بتطول

يــا مــين يجــي ويــقــول
إبـــنـك غـــلـب صـنـديـد
يــا مــين يجــي ويــشــوف
شـــارب عـــريض مـعـكـوف
ولــفّــه وعـــبـايــة صــوف
ومــداس جــلـد جــديـد

لكن لم يطل الوقت حتى أقبل عيد الفيكي، على ظهر جواد يتقلّد سيفاً مرصّعاً، ويرتدي حلة مزركشة. فهب أهل القـرية يستقبلونـه بالحـداء، وطفقت أم عيد تنشـد بعض الأناشيد، من مقام الزلاغيط، المعروفة في مناسبات الأفراح.

وهكذا صار «عيد الفيكي» بطلاً عظيماً، لا يُذكر اسمه إلا بالفخر والاعتزاز.

* * *

عاشت قصة «عيد الفيكي»، في خيال أبناء إبل السقي. جيلاً بعد جيل، حتى قام جيلنا، نحن المتعلمين المشككين بمفاهيم أجدادنا، فحكمنا بعدم صحة هذه القصة، وانكرناها وتنكّرنا لها، ولم نفطن إلى أهمّيتها كملحمة تاريخية نسجها خيال أجدادنا ليملأوا بها فراغ حياتهم.

وكان من رواة القصة، امرأة عجوز شاعرة ندّابة عمياء اسمها سليمه، كانت تحفظ القصة بحذافيرها، وتنشد بصوت

حنون، جميع المراثي والأغاني المنسوبة إلى أم عيد، وبذلك كانت تكتمل عناصر هذه الملحمة، في ليالي حداثتنا، حول مواقد الشتاء.

عميان القلوب

يُحكى عن زعيم لبناني راحل أنه كان تقيّاً متعبداً يحفظ الفرائض ويقيم الصلاة في مواعيدها، لكنه كان يُنهي صلاته دائماً بالدعاء التالي: «يا غافر الذنوب وساتر العيوب كَثِّر عميان القلوب».

جناح الأم بيلمّ

عند القرويين، في لبنان، حكايات ترويها عجـائزهم، حول مواقد الشتاء، وهي تزخر بـالمفاهيم والقِيَم والأمثـال والحكم الثمينة. وقد لا يمر وقت طويل حتى تموت عجائز القرى، وتختفي هذه الحكايات عن شفاه الناس.

في ما يلي حكاية ترويها سيدة عجوز من بعلبك:

مات معّاز في إحدى القرى، عن زوجة وثلاثة أبناء، فاختلف هؤلاء على اقتسام الارث، ثم حكَّموا بينهم واحداً من شيوخ القرية اشتهر بحكمته وسداد رأيه. فسألهم عن التركة، قالوا: «إنها: بيت، وشلعة معزى، وعصا، وجراب زوّادة، وثلاثة كلاب جعارية»[1].

(١) في مفهوم العامَّة أن الكلب الجعاري أشرف من الكلب الفرنجي، لأن الكلب الجعاري يهتم بخدمة الانسان خلافاً للكلب الفرنجي الذي يهتم الانسان بخدمته.

فقال الشيخ: «البيت للأم، والعصا للابن الأكبر، والجراب للإبن الأوسط، وشلعة المعزى للإبن الأصغر، أما الكلاب الثلاثة، فلكل ابن، كلب».

فنهض الابن الأصغر، حالاً، وأخرج شلعة المعزى، مع أحد الكلاب، ومشى بها إلى حيث ظن أن أخويه لن يرياه في ما بعد.

ثم قال الابن الأكبر: «ما دام لم يبقَ لي هنا ما أعتاش به، سأذهب إلى مكان آخر، في طلب الرزق». وحمل عصاه ونادى كلبه ومضى.

وهكذا فعل الابن الأوسط، الذي علّق الجراب في كتفه، ونادى كلبه وذهب في سبيله.

ثم قالت الأم: «وأنا سأذهب، كذلك، في طلب الرزق، إذ لم يبقَ لي هنا ما أعتاش به». وأوصدت باب بيتها وسافرت إلى بلدة أُخرى، ومرّت بحقل فيه حصادون، وطلبت عملاً، فقال لها رب العمل: «اشتغلي معنا في جمع أغمار القمح ونعطيك من كل غمر شميلة»، والمثل بيقول: «شميله عا شميله، بتشبع العيله».

فتنهّدت المرأة وقالت: «أنا امرأة مقطوعة وليس لي عائلة .

قال الرجل: لكن اباءنا كانوا يقولون: «اللي بيحسن فعالو، كل الناس عيالو».

وبعد عمل عشرة أيام، جمعت المرأة أجرتها من شمائل القمح، ودقَّتها في يوم عطلة، وحملت غلّتها إلى مطحنة قريبة، فطحنتها وتوجهت بالدقيق إلى قريتها، قالت: «أتفقد بيتي وأتسقط أخبار أولادي، عسى أن أجد مَن يعرف عنهم شيئاً، وأعود غداً إلى عملي».

وعندما وصلت إلى بيتها فوجئت بوجود الكلاب الثلاثة ترقد أمام الباب، وقد أعياها الجوع والعطش، لكنها ما أن أحست بمجيء المرأة، حتى هبّت ترحب بها وتتواثب عليها لتقبّل يديها وترقص حولها وتلوّح بأذنابها.

فبكت المرأة بكاء مراً، وقالت: «أيمكن أن تكون هذه الكلاب الثلاثة أكثر ولاءً لهذا البيت، من أولادي الثلاثة». وأخذت المرأة، في الحال، دقيقاً عجنته بما وجدته من الزيت في بيتها، ووضعت الملتوت أمام الكلاب، وقالت: «هؤلاء هم عيالي، لن أبرح من هذا البيت، ولن أترك هذه الكلاب، حتى ينفد ما عندنا من زيت ودقيق».

وقبل أن تغيب شمس ذلك النهار، أقبل الابن الأكبر، وقبّل يد والدته وطلب رضاها، وقال: «سافرت من بلد إلى بلد في طلب الرزق، وانتهيت أمس في خان ينزل فيه مسافرون من بلدان متنوعة، وعند المساء، جلسنا نتسامر، وأَخذ كل واحد يتحدث عما سمع ورأى، وإذا برجل جليل القدر مسموع الكلمة يروي لنا إحدى الحكايات القديمة، قال

إن الاسكندر ذو القرنين، عندما حاصر مدينة حلب، سمح للأهالي أن يخرجوا من أبواب المدينة، وأن يحمل كل واحد منهم ما استطاع حمله. فخرج كثيرون يحملون الأواني والطنافس والجواهر، وإذا برجل يخرج حاملاً أمه العجوز المريضة على ظهره، وعندما سأله الاسكندر، أجاب: «لا يوجد في بيتي ما هو أثمن من أمي العجوز». فأمر الاسكندر أن يعود الرجل إلى بيته مكرّماً ولا يمسه أحد بسوء».

وأضاف الشاب أنه عندما سمع هذه القصة حزن وندم على ترك أمه وحدها ورجع ليعيش بالقرب منها.

ولم يكمل الابن الأكبر قصته حتى دخل الابن الأوسط وقبّل يد والدته وصافح أخاه، وقال: «خرجت أطلب الرزق، من بلد إلى بلد، ومررت أخيراً في مدينة رأيت فيها امرأة، تبيع خبزاً في الشارع، فسألتها، بكم تبيع الرغيف، قالت: «بالحمد والثناء».

قلت: «إذن هاتي لي عشرة أرغفة،. وأنا أقول لك عشر مرّات: «كثّر الله خيرك». وهكذا كان، وأخذت الأرغفة العشرة ووضعتها في الجراب، ومشيت. ثم قلت: «لا بل يجب أن أعرف قصة هذه المرأة التي تبيع الخبز بالحمد والثناء، ورجعت وسألتها فقالت إن أحد أولادها مريض وقد نذرت أن تبيع الخبز يومياً، في الشارع، لوجه الله، إلى أن يشفى ولدها».

وأضاف الشاب أنه عندما سمع قصة المرأة تذكَّر حنان أمه، ولام نفسه ورجع ليعيش بالقرب منها.

ولم يكمل الابن الأوسط قصته حتى وصل الابن الأصغر، ودخل وارتمى في أحضان امه، وقال: «مشيت بشلعة المعزى من مكان إلى مكان، في الجبال والوديان، حتى بلغت وادي القرن، وكان الكلب قد تركني، فأمسيت وحدي، وإذا برجل شيخ يناديني عن جانب الطريق: «أيها الولد، كيف تتجرأ على اجتياز هذا المكان، بهذا القطيع من الماعز، ولا عصا في يدك ولا كلب يعبر أمامك ولا رفيق لوقت الضيق؟».

قلت: «كان معي كلب، تركني أمس، ولي اخوان تركتهما حتَّى لا يقاسماني ما قسمه الله لي».

ورويت للشيخ قصتي مع أخوتي، فقال: «يا سبحان الله... الكلب استفقد ورجع يتفقّد أخويه، وأنت تركت أخويك كأنهما غريبان عنك، صحيح! بنادم أسود رأس، كانت النصيحة بجمل، صارت بلاش، ما حدا عاد يسمع نصيحة حدا».

فقلت له: «إنصحني بما ينفعني وأجرك على الله.»

قال: «نصيحتي الأولى: أمَّك ولا يهمّك!»

نصيحتي الثانية: «أهلك ولا تهلك!»

نصيحتي الثالثة: إذا انوجعت ما تقول «آخ»[1] إذا ما كان عندك أخ».

قال الشاب: «وعندما سمعت نصائح الشيخ انتبهت وأدركت مبلغ حماقتي، وشكرت الشيخ وقفلت راجعاً بشلعة المعزى، لتكون لنا جميعاً، ونعيش معاً ولا يفرّق بيننا غير الموت».

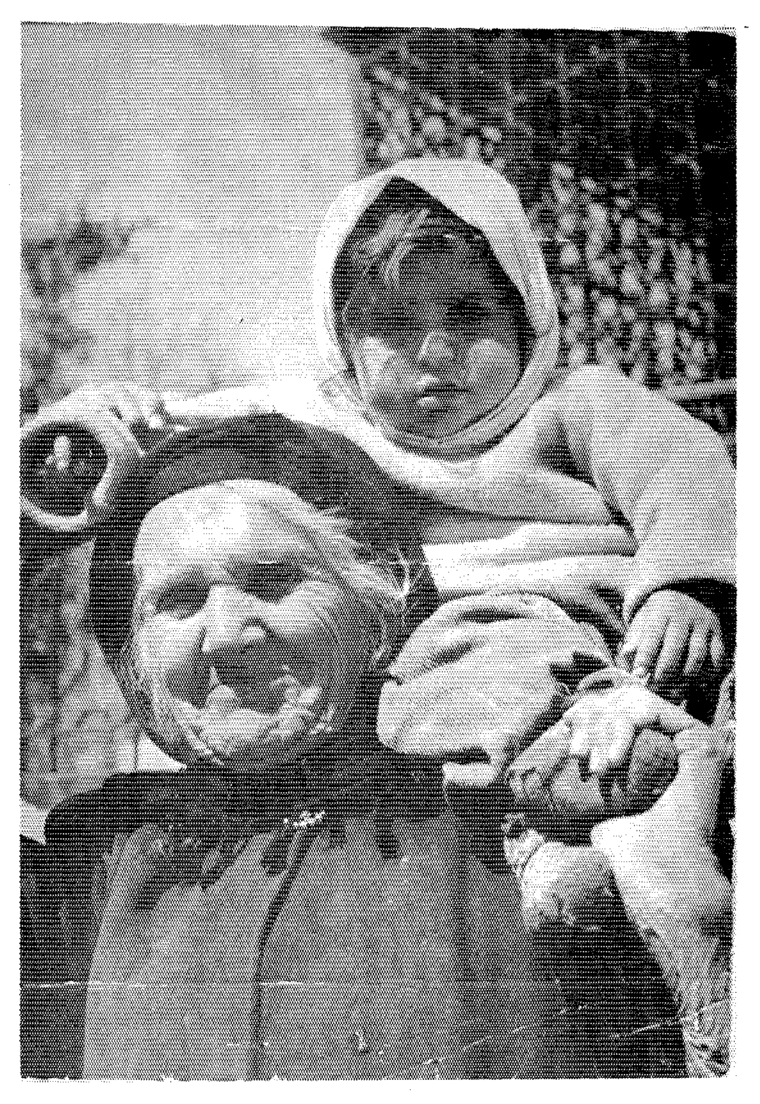
فقامت المرأة عندئذٍ، وشكرت الله وباركت أبناءها وقالت: «فليذهب أحدكم الآن، ويستدعي الشيخ الذي تولّى قسمة التركة في ما بيننا، لنسأله عن حكمته في قسمته».

وعندما حضر الشيخ سألوه، فقال: «العصا للابن الأكبر ليرعى أخويه ويكون مسموع الكلمة موفور الكرامة في عشيرته، والجراب للابن الأوسط، ليتولى شؤون البيت وتأمين

---

(1) في مفهوم العامة أن كلمة «آخ» للتوجع، تعني مناداة الأخ للاستنجاد به، ومن هنا ما جاء في أحد المواويل البغدادية:

لا تأكل التمر إلّا من جنى نخلك
ولا تركب السبع، ولو مثل الجمل ناخ لك
ولا تأمن الدهر، مهما طاوعك دخلك
يلعن أبو عيشةٍ من بعدها دَخَلَكْ
ولا تشتكي علّتك، حتى إلى خلّك
شو نفع قولة «آخ» ولا أُختاً ولا أخْ لَكْ



جناح الأم بيلمّ

احتياجاته. أما الابن الثالث فلكونه الأصغر بين الأخوة، توجّب عليه أن يرعى معزى العائلة، وأما البيت فللأم، حتى إذا تفرّق الأبناء وبقيت الأم في البيت، لا بد أن يعودوا ويلتمّوا في ظل جناحيها، لأن المثل يقول: «جناح الأم بيلمّ».

لا تعيري ولا تستعيري

أمثال العامة عن «العيرة» كثيرة، مثل: «العيره موكّل فيها بليس» و «ثوب العيره ما بيدفّي» وغير ذلك.

لكن أبلغ ما سمعت في هذا الموضوع، كان على لسان إحدى عجائز «عين التينة» قالت في حديث إلى ابنتها: «يا بنتي، مالك ومال العيره، سِتّك كانت تقول: لا تعيري ولا تستعيري حتى الروبه والخميره».

وجناح الأب طيّار

عند العامة مثل معروف متكامل في مبناه ومعناه، هو: جناح الأم بيلمّ وجناح الأب طيّار.

فإذا بلغ الأولاد أشدهم وخرجوا في طلب الرزق، قيل إنهم «طَيَّروا» وذلك تشبيهاً لهم بفراخ الطير عندما تبدأ طيرانها من العش.

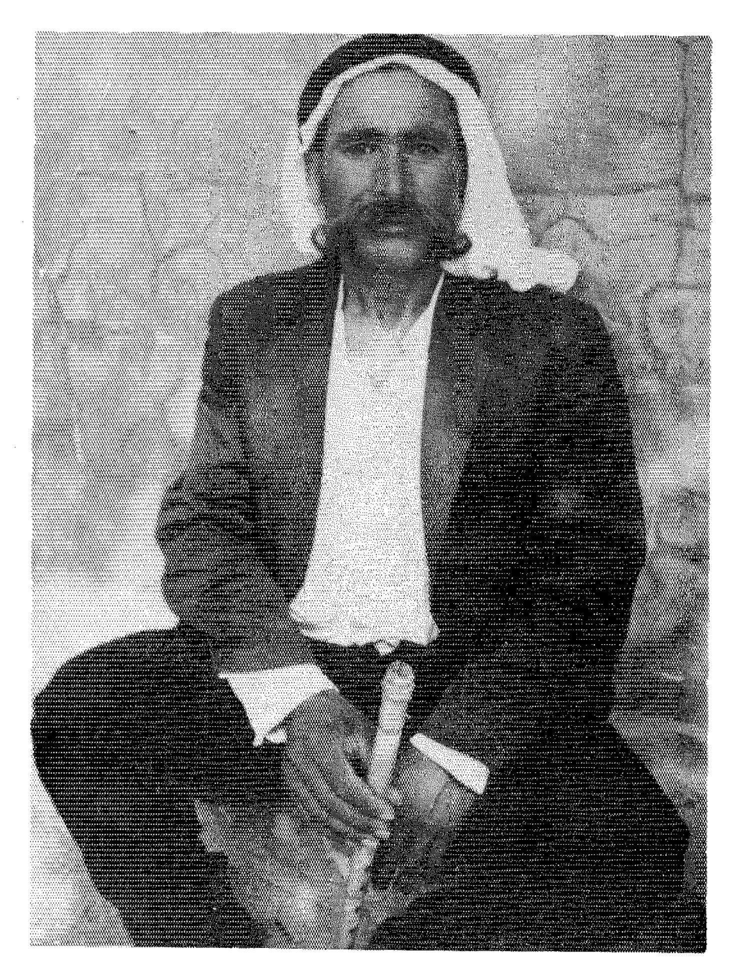
والذي يراقب عصافير الدوري، يلاحظ أن العصفور الأب، عندما يكتمل نمو الفراخ في العش، يبدأ بتدريبها على الطيران، فيفتح جناحيه أمامها ويطير قليلاً، فلا تلبث أن تطير مثله وتتهاوى أوَّلاً على الأرض، ثم تطير بعد عدة محاولات، وفي هذه الأثناء تبقى الأم قرب العش حزينة على فراق فراخها.

ويحدث أحياناً أن تصاب الفراخ بالقراد، وهو من الطفيليات، فإذا ضعف أحد الفراخ، لإصابته بالقراد، وعجز عن الطيران، يبقى وحده في العش، ويسميه العامة «قراد

العش»، ويطلق العامة هذا اللقب علـى الابن الأصغر في العائلة.

ومعنى المثل حرفياً، أن الأم تلم ابناءها حولها، والأب يفرّقهم، كما يفعل عصفور الدوري، ولذلك قيل: «جناح الأب طيّار».

غير أن العامـة يستعملون هذا المثـل للتأكيـد على أن الأولاد، إذا مات أبوهم عن أمهم، عاشوا في أكنافها، فإذا ماتت أمهم، عن أبيهم تفرقوا.



فقر وهداوة بال مكسب بلا رسمال

إن جنّوا ربعك، عقلك ما بينفعك

حُكي أن وجيهاً قروياً أرسل ابنه إلى بيروت ليتعلّم في إحدى مدارسها. فانخرط الولد في إحدى الفرق الموسيقية، وأهمل دروسه، ولم يتعلّم سوى التزمير بالمزمار.

وعاد الولد أخيراً إلى قريته ومعه المزمار، وجلس في المساء على شرفة بيت أبيه، وأخذ يلعب على المزمار، فأقبل إليه بعض الفتيان معجبين. ثم كثر عدد الزائرين المحبّذين، فقال أبوه: «تسوكر مستقبل الصبي، يا أم حنّا، الجايين لعنا أكثر من الرايحين، هيك بتكون الوجاهه».

وأخذت حفلات المزمار تتكرر كل مساء، وتزايد عدد القادمين والمؤيِّدين، فقلقت أفكار بعض وجهاء القرية الآخرين:

ـ «بوحنا بَدّو يعمل وجيه على صوت المزمار، لازم نلحق حالنا ونلملم ولادنا، جاب بوحنا مزمار، لازم نحنا نجيب دربكّه، بكره ما منعود نمون على ولادنا إذا «أخذوا كسرَه» على بيت بوحنا».

وهبط، في اليوم التالي، أحد رجال القرية إلى بيروت

واشترى دربكة، وبدأ في الحال تصريف الأعمال: فاذا هبَّ هؤلاء إلى التزمير ردّ عليهم أولئك بالضرب على الدربكَّة ـ وما بيردّ الرطل إلا رطل ووقيه.

ولم يمضِ سوى قليل من الزمن حتى تشيَّع نصف أهل القرية إلى حزب الدربكـة، والتحق النصف الآخر بفـريق المزمار، وتعطلّت مصالح القرية، لانصراف هؤلاء وأولئك إلى مداومة الدقّ والتزمير وممارسة أعمال الاستفزاز والتشهير.

رجل واحد في القرية لم ينجرف في تيّار الدقّ والتزمير.

بقي الرجل على الحياد ـ كبَّر عقله ـ فحاد عنه الجميع. نبذه الفريقان، تهجّموا عليه بعنف: «يا معنا يا علينا».

واعتصم الرجل بحياده، ثابر على عناده، عاش وحيداً حتى خشي أن يموت مكسور الخاطر.

وفي ذات صباح شوهد الرجل يشدّ طبلاً على تارة غربال عتيق، فسألوه: «شو عدا مما بدا حتى قررت أن تصير طبّالاً، في آخر الزمان؟»

قال: «إن جَنّوا ربعك، عقلك ما بينفعك».

فجرى جوابه مثلاً.

الله ينجّينا مِن حَلّة الحبل

إذا وقع مشكل، وخشينا أن يتطوّر إلى مشاكل، نقول: «الله ينجينا من حَلّةِ الحبل». الخوري يوحنا سكّاب، في إحدى عظاته، يروي لنا قصة هذا المثل:

كانت هنالك قرية تعيش في سلام ووئام، وكان عند الشيطان ابن بلغ سن الرشد، فأراد الشيطان أن يمتحن شيطنة ابنه، وطلب منه أن يستعمل أسهل وسيلة، لإثارة أكبر فتنة في القرية الآمنة.

وما هي إلا ساعات، حتى نشب خلاف في القرية، تطوّر إلى شجار، فعراك، انقسم به أهل القرية فريقين متحاربين، فاستدعى الشيطان ابنه، وسأله ماذا فعل حتى أثار الفتنة في القرية، قال: «حللت الحبل، وتركت الباقي على أهل القرية».

وأضاف الشيطان الصغير، انه رأى إحدى نساء القرية تحلب بقرة، بعدما «مَنّعت» عجلها وربطته جانباً، فتسلل

الشيّطان الصغير وحَلّ ربطة الحبل، فأفلت العجل وركض ليرضع من ضرع امه، فقلب سطل الحليب، فغضب زوج المرأة واتهمها انها لم تحكم ربط الحبل جيداً، حتى أفلت العجل.

وضرب الرجل زوجته، فانتصر لها إخوتها وضربوه، وجاء اخوة الرجل وابناء عمه، واشتبكوا مع اولئك، وما لبثت المعركة أن شملت جميع ابناء القرية.

من ذلك الوقت، صرنا نقول، كلما وقع مشكل، وخشينا أن يتطوّر إلى مشاكل: «الله ينجّينا من حلّة الحبل».

إذا تغيّر مجرى الرّيح
حطّ راسك تحت جانحك واستريح

نائب سابق، تجري رياح السياسة، في غير اتجاهاته، سألناه رأيه في الظروف الحاضرة، قال: أنا اليوم مثل ما قال مالك الحزين: «إذا تغيّر مجرى الريح، حِطّ راسك تحت جانحك واستريح!».

القسم السادسْ

جراب الزوّادة



هي ليلة يا مكاري

خرج أبو جهجاه، أمامي، من بيت المختار، ومشيت وراءه.

وقبل أن يصل بي إلى بيته، صاح من بعيد: يا جهجاه عَدّي «غمروش» عالقبو، معي «إجر غريبه».

ثم التفت إليَّ، وقال: كلبنا «غمروش» طبعو نكد.

فقلت في نفسي، إذن أنا الآن «إجر غريبة» في قرية عين القاق وسأبيت ليلتي تحت رحمة «غمروش».

ثمَّ عزّيت نفسي بأن من الجائز تسمية الشيء باسم الجزء، وبأن الكلاب تميّز الغرباء من روائح أرجلهم، لا من روائح أفكارهم التقدمية واهتماماتهم السياسية.

غير أني لبثت خائفاً أن يكون أخونا «غمروش» اكتسب شيئاً من فطنة صاحبه، فيشتلق أني ابن حكومة، وهنالك الطامة الكبرى.

وبعدما أدخلني أبو جهجاه إلى بيته، وأجلسني على

الدشك، ولج باباً داخلياً، إلى حيث زوجته، وسمعته يقول لها: «دَقْدَست معو كثير، ما قدرت إقفرو، بس أغلب الظن إنو نصراني من بلاد المتاوله».

فتنحنحت أم جهجاه وهمدرت: «مقلى كشك والسلام!».

فبلعت ريقي، وقلت: «هـذا حق، فكل حـاجب له واجب، كما يقول المثل».

بيد أني ما جئت، الليلة، إلى قرية عين القاق لأتعشى كشكاً عند فلان من الناس، بل جئت، بوصفي مـوظفاً، لأشرف غداً على الانتخابات النيابية في القرية، ودعاني الأخ الكريم أبو جهجاه، للمبيت عنده والمثل يقول: «هي ليله يا مكاري!».

وبدأ أبو جهجاه يغيب ويجيب:

ـ صحن زيتون، وشقلة خبز صاج.

ـ إبريق فخار، ورزمة بصل أخضر.

ـ صحن لفت مكبوس، وصحن باذنجان مكدوس.

وما أشبه من حواضر البيت.

وكان كلما غاب وجاب، يوجّبني بمجاملة:

ـ «عِدّ ومِدّ تا شرفتنا».

- «حضرت وواجبك ما حضر».

- «هذا من قيمتنا مش من قيمتك».

وجاءني، أخيراً بقصعة من الكشك المجبول بالثوم البلدي الحار، الذي ما زالت رائحته معشعشة في مناخيري.

ثم جلس قبالتي، متأدباً، ومدَّ لي حديثاً: «الحرمه نَفَس يا أفندي، إذا كان نَفَس الحرمه نظيف، بيكون أكلها طيب هذي اللي عندي، مثل ما قال المثل: «إيدها مريّه ونفسها رضيّه».

وتابع أبو جهجاه، «مرتي الأولى، الله لا يوجّهلها الخير، خربتلي بيتي، زعلت مني عا شي ما شي، وطلبت الطلاق. وتنازلت لي عن كل حق ومستحق. لكن أخوك أبو جهجاه ما استليق على نفسو، يقولوا بو جهجاه مش قد الخاطر. رحت استرضيتها ودفعتلها خمسين ليره ذهب. وبس رجعت عالبيت، طلّقتها ودفعتلّها الحق والمستحق وثلثين الباطل. ولما سألوني، شو كان جابرك تدفع الطاق طاقين وثلاثه، قلت: حتى العين ما تعلى فوق الحاجب».

من وقت إلى آخر، كنت أسمع نحنوحة في الداخل، ثم يداً بيضاء تمتد من الباب الداخلي بجنطاس من الدبس أو بصحن من التين المطبوخ، فيتناوله أبو جهجاه في رفق، ويعود إلى الكلام:

- «بيرجع مرجوعنا للحرمه، بتعرف يا أفندي، ليش الزلمي بيختلف مع حرمتو؟».

ولم يترك لي أبو جهجاه مجالاً للإجابة، لو أردت، بل افترض سلفاً أني لا أعرف، وتبرّع لي بالجواب، قال: «الزلمي بيختلف مع حرمتو، لأنو بينسى إنها حرمة، بيخمّنها زلمي، بيحكيها بالمعقول، الحرمه أيمتي كان عندها عقل حتى تفهم بالمعقول، الحرمه يا أفندي، مثل البسينه ما بتفهم إلاَّ بالحلمسه».

ثم امتدّت اليد البيضاء مجدداً، من الباب الداخلي بصحن من كبوش التوت، جاءني به الأخ أبو جهجاه، واستأنف: «الدجاجه، يا أفندي إذا فاتت عالبيت، بينفتل دماغها، ما بتعود تعرف كيف بدها ترجع، وهيك الحرمه، إذا تمدّنت، بينفتل دماغها، وبتضيع ماخوليّتها، ما بتعود تعرف خط الرجعه».

وكان أبو جهجاه، يبادرني بالسؤال، ويقوطب عليّ بالجواب، فيغلق أمامي أبواب الكلام - تلطفاً منه - ليفسح لي في الطعام، قال: «حضرتك بتكون قريان كتاب النصارى، بتعرف ليش الله غضب على آدم وطردو من الجنّه؟».

ثم قودَم عليّ وأجاب بسرعة: «أنا بفهّمك ليش، لأنو طاوع حرمتو، الله طردو من الجنه!».

وأضاف أبو جهجاه: «دخلك! ما زال هيك بيقول كتاب النصارى ليش حتى النصراني بتفوت مرتو قدامو وبتشرب القهوه قبلو وبتقعد عالكرسي قبالو وبتحط إجر على إجر؟».

وكنت حينئذٍ شبعت وصار في مقدوري الكلام، وكُنت أُريد أن أقول للأخِ أبو جهجاه: «معك حق، أفضل شيء للمرأة أن تبقى يداً بيضاء ممدودة من الباب الداخلي، لا أكثر ولا أقل».

لكن أبو جهجاه كان عاجلني بسؤال جديد، قال: «صار بيناتنا خبز وملح، صار فينا نحكي بصراحه، بدّي إسألك سؤال، إنت ابن حكومه عتيق، بعدك بتعرف لقمة الحلال من لقمة الحرام، يما مثل ما قال المثل: «كل أخضر عند العرب تين؟».

ثم استدرك وقال: «مالنا ومال الحكومه، مرّه واحده لعبوا بعقلاتي، قالوا إن المستشار الفرنساوي بدُّو يعينّ حرّاس (كارد موبيل) أخذت ولادي الثلاثه لعند القائمقام وقلتلو: عندي هالثلاث سباع، كل واحد بيقرط راس الحيّه، بدي أوضعهم تحت تصرف سعادة المستشار. فأخذ القائمقام يتمايزهم، واحد بعد واحد، ثم قال: سلامة معرفتك، سعادة المستشار ما بدو من هالبضاعه، بدو واحد مثل الأطرش بالزفه، وواحد لا بيهش ولا بينش، وواحد لا بيقطع شعره ولا بيفلق بعره، إذا كان عندك من هالبضاعه، جيب. قلت: «لا سمح الله

يكونوا ولاد بو جهجاه كمالة عدد. إذا كان سعادتو بدو عسكر يكون خيال صحرا مش لازم يحمّلهم سلاح، السلاح ب إيد.. بيجرح».

وكانت اليد البيضاء امتدت عندئذٍ من الباب الداخلي، بفراش ولحاف ومخدّتين، حملهم أبو جهجاه برفق إلى إحدى القراني. وقال: «نحنا جماعه، حياتنا بسلاحاتنا، وإيدنا مدوم على «بيت النار»... وأدار ظهره ومضى بدون استئذان.

وكان التعب قد أنهكني وغلبني النعاس فاندسستُ في الفراش كيفما تيسَّر. لكن الرجل ما لبث أن عاد ومعه بارودة «أم حديدين» انكليزية حشاها «مشط خرطوش» ولقحها إلى جانبي في الفراش وقال: «حتى تنام نومة رجال».

ومضى دون أن يمهلني حتى أسأله أي سؤال، فتمسمرتُ في الفراش لا أَتململ ولا أَتحلفص، مخافة أن تقع يدي على «بيت النار»، ورحتُ أتعوَّذ وأستعيذ وأتذكّر وأستعيد بعض الصلوات التي كانت والدتي تُعلِّمنيها قبل النوم في أَيام حداثتي. وطار النوم من أَجفاني حتى الصباح حين صابحني أَبو جهجاه وسألني كيف نمتُ ليلتي، قلت: «بألف خير».

ثم استطردتُ: «ولكنني أسألك يا أخ أَبو جهجاه، لماذا أَتيتني ببارودتك هذه ونيَّمتها معي في الفراش ما دمتُ أَنام مطمئناً في حماك.

قال: «سلامة معرفتك، لكي تتأكَّد أنك لا تنام تحت رحمتي، بل أنام أنا تحت رحمتك... والمثل بيقول: «الضيف سِيْد وأَهل البيت عبيد».

فقير تعينو، ولا غَني تخونو

يحكى أن رجلاً كانت عنده ابنة وحيدة جميلة، تقدّم لخطبتها شابان: الأول غني كرحوت والثاني فقير سَرَبَست، فأعرض الرجل عن الشاب الغني وزوّج ابنته إلى الشاب الفقير.

وعندما سُئل الرجل لماذا فضل مصاهرة الفقير المحترم على مصاهرة الغني النذل، قال: «فقير تعينو، ولا غني تخونو».

ألفُ قلبٍ ولا غلبةْ

كنت في الجنوب وانقطعت قرب «القعقعية»، فمرَّ بي رجل يركب على حمار، وتبرّع لي بنصيحة، قال: «المفرق بيبعد شرب سيكاره، هونيك شي بوسطه بتلمّك».

فأشعلت آخر سيكارة في علبتي، وتوكّلت على التقادير، ومشيت.

وبعد مشي ساعتين، وانتظار نصف ساعة، مرَّت إحدى البوسطات ولمّتني عن الطريق، فقعدت في منتصف المقعد الخلفي.

قلت، «قعدت»، والأصح أن معاون سائق البوسطة، وضعني هناك، كما توضع الأشياء، لأني حينئذٍ، كنت شيئاً ملموماً عن الطريق، يمكن وضعه أينما كان، ورحم الله والدتي التي كانت تقول: «المرمي لا تلمّو وإن لمّيتو لا تشمّو!».

بل، الأصح أن المعاون المذكور، كان أنزلني إسفيناً بين رجلين مترهّلين، في المقعد الخلفي من البوسطة، بحيث لم

يكن في مقدوري أن أتخلفص لو أردت، فلبدت.

لكن الرجل الراكب عن يميني ما لبث أن تخلفص ودحش يده في عبّه، وقبل أن يسحبها قال: «منين حضرة الأخ؟».

قلت: «منكم وفيكم».

فارتاحت ملامح الرجل، وانشقَّ شدقاه عن أربعة أسنان ملبّسة ذهباً، وقال: «أهلاً وسهلاً». وسحب من عبّه ضبوة جلد فيها دخان فلش، مهروم باليد، ولف منه لفافة، دعكها بأصابعه حتى استدارت ، وأزاح شاربيه، في رفق، عن شفتيه، وألصق اللفافة بلعابه، وقدّمها إليَّ في لطف، ثم لفَّ لنفسه، لفافة غليظة، فيما كان يتابع حديثاً كان بدأ به قبل مجيئي، قال: « ـ ما وصلنا لعند شقيف أم نوح، حتى قال الكريم خوذ، الطالع من الأرض أكثر من النازل من السما، وحبّة البَرَد قد الجمشه. نحنا بعدنا بأيلول، قلت، خرب بيتي، وإذا غضب الله على قوم جعل صيفهم شتاءً وشتاءهم صيفاً».

وسحب الرجل مضة عميقة من سيكارته الغليظة، وتابع قال:

«. . . . بلاطول سيره، لطينا تحت الشقيف. ما انقطعت النقطة حتى نفدت دورية، أعوذ بالله، قلت، إذا سبق

سلامهم كلامهم، كل خطاب وإلو جواب، وإن قالوا: «كاني ماني»، لكل حادث حديث. . .».

فقاطعه راكب آخر قال: «الحاكم مستحكم، كيف ما ضرب بيصيب»، والمثل بيقول: «ابن الحكومه، إن صادقتو أكلك وإن عاديتو هلكك!».

لكن صاحب الأسنان المذهبة تابع كلامه: «صحيح! إذا غضب الله على قوم جعل صيفهم شتاءً وشتاءهم صيفاً، وإذا رضي الله على قوم كفاهم شر الحكومة والحكيم، مش هَيك يا حج نوّاف؟».

أجاب الذي إسمه الحَجّ نوّاف، وكان يجلس عن شمالي: «هيك وستين هيك!». ثم كركر بمسبحة كانت في يده، وأضاف: «وأغلب الظن أن كلمة حكيم مشتقة من حكومة، لا من حِكمة، والله أعلم».

فالتفت إلى الوراء رجل أجرودي كان يجلس أمامنا، وقال: «وصلتلك دعوه عالمهرجان يا حج نواف؟».

فقبض الحج نواف على حبات مسبحته، ثم كركر، ثم فكر، ثم تمتم، ثم قال: «وصلتني دعوه. أهل الضيعه رايحين، بس أنا مش رايح، ما بيتعرّفوا علينا، إلاّ إذا احتاجونا، اللي معو خمس ليرات بيحطها، وبيرجع آخر النهار بلا أكل، بيصير فينا مثل عزيمة الحمار عالعرس».

فقالت امرأة ملثّمة كانت في الزاوية: «بلاها يا حج، نسيت شو تحشّمت حتى عيّنولك إبنك؟».

كانت البوسطة مزولعة بألوان براقة، وفوق يمين السائق مكتوب: «هذا من فضل ربّي» وفوق يساره صورة عين، مكتوب تحتها: «عين الحسود تبلى بالعمى».

وكان سائق البوسطة يتحدث، على طول، في صوت أجش مشوش، في موضوع ذي شجون، مع راكب في المقعد الثالث يلبس زيّ رجال الدين، سمعته يقول للسائق: «راحت الله لا يردها، أحسبها صرمايه وشلحتها من إجرك، أكثر من النسوان ما خلق الله».

وكان معاون سائق البوسطة يُحزّك ويُمزّك، في عرض البوسطة وطولها، ويعطي أذنه للحديث، فتنخّع وبصق على الأرض، ثم داس البصقة بقدمه، متشفياً، وقال: «يا ما تحت السواهي دواهي!».

ويعود رجل الدين فيسأل السائق: «وشو عمل رئيس البلديه؟». فيجيب، نيابةً عنه، راكب: «رئيس بلديتنا صح فيه قول المثل: «مثل عجايز النور، قِلّة تدبير وثقله عالحمير».

وكانت البوسطة تسير بنا، ولا تلبث أن تقف فتلتهم عن الطريق، أشياء كأنها بنادمين، وبنادمين كأنّهم أشياء، ثم تعود فتستفرغهم تباعاً على جوانب الطريق.

خلا أحد المقاعد الأمـامية، فنـادى معاون البـوسطة: «شَرِّف يا حج نوّاف، مقـامك محفـوظ» فقام الحـج نواف وتصدّر المقعد الأمامي، دون أن يلتفت ذات اليمين أو ذات الشمال.

على مقعدنا الخلفي، نحن جماعة باش بزق البوسطة، كان يتقعقر، قرب الباب، رجل مقشمر، غليظ الرقبة، يشبه صوته صوت كركعة الربابيع، ترحرح، عندما نهض الحج نواف، وقال: «المثل بيقول: إقعد أعوج وإحكي جالس»، حتى بالبوسطه في مقامات وكرامات، لو ركب معك شي بَيك وَين كنت بتحطو، يا ابن بو طلامي؟».

وأصلح الرجل المقشمر دِكّة شرواله، وتابع كلامه: «يا جماعه! أنا بشارط، بكره الحج نـواف أول واحد بيـوصل عالمهرجان، وبيفقع خطاب من كعب الدست...»

فقاطعته المرأة الملثَّمة: «الحج نواف مسمار أقطم، وعيلتو شلعوطين ونص، مجبور يمشي إجر بالبور وإجر بالفلاحه»، والمثل بيقول: «الإيد اللي ما فيك تعضها، بوسهـا وإدعي عليها بالكسر».

ثم تقلقز جاري، صاحب الأسنان المذهبة، وكان عقله ما زال داقراً عند حديث الدخان، والحكومة، فقال: السنه الموسم مقبل، بس الله يرد عنا ولاد الحـرام، كل أتعـابنا

لغيرنا، وشغلنا بلا فايده، مثل رعيّة الكلاب، غبره وتخزيق ثياب. . .».

فقال الأجرودي: «الله يطوّل عمر الحكومه، رئيس الحكومه قال إن قلبو دايماً مع أهل الجنوب وشو عاد يهمنا».

أجاب صاحب الأسنان المذهبة: «بالحقيقه، الحكومه أم حنونه، بَس نحنا، مات أبونا وتجوّزت أمنا زلمي غريب، ومين ما أخذ أمنا بيصير عمنا».

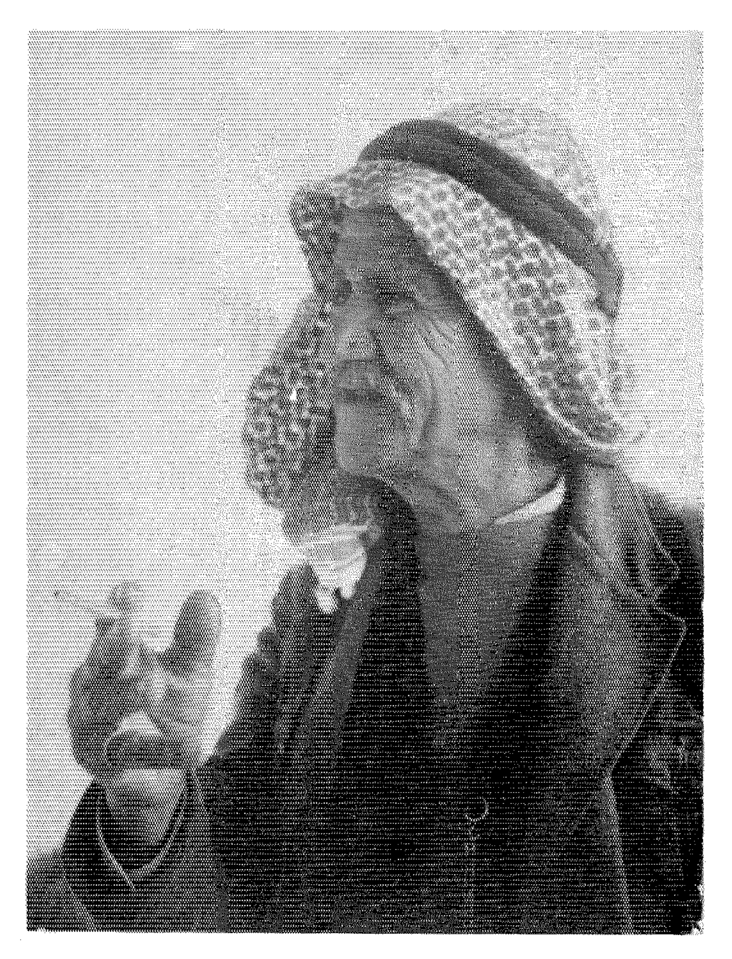
فهزَّ الأجرودي رأسه وقال: «على كل حال، نحنا أيتام، بس الحقيقه إن الحكومه خالتنا مش أمنا، والمثل بيقول: «الخاله مرة الأب لا بتحب ولا بتنحب».

كانت البوسطة، كلما مشت بنا، نزل منها بعض الركاب، حتى خلت المقاعد الأمامية، تقريباً، إلَّا من الحج نواف الذي أخذ مجده، فانجعى على جنبه الأيسر، وأخذ غطَّة، في حين كان الرجل المقشمر، في مؤخر البوسطة، يناديه من وقت إلى آخر:

- يا حج نوّاف، نوم الهنا.

- يا حج نواف، لاقينا بكره عالمهرجان.

- يا حج نواف، «ألف قلبه ولا غلبه».



أمرّ من المرّ حكي لا بينفع ولا بيضرّ

أنكلزي يتا أنكلزك

كنا في رحلة سياحية إلى أوروبا تضم أربعاً وأربعين امرأة، عدا الرجال.

في مدينة فينا أردت أن أعرف رأي مدير المطعم فينا، قال: «لعلكم من الشعوب المتعايطة، التي تعيش حول البحر المتوسط».

هذا صحيح! لأن الأربع والأربعين الأمرأة كنَّ يتعايطن في استمرار، يمزحن ويضحكن جميعاً، في الوقت نفسه، ولا مَن يسمع ولا مَن يفهم، وكان كلامهنَّ أقرب إلى الصيصعة والصهصنة مما هو إلى المحادثة وتبادل الرأي.

وفي لندن حزرت سيدة إنكليزية مَن نكون، قالت: «أنتم العرب، علامتكم هو اللوطعة على الأرصفة». وهذا أيضاً صحيح! فنحن غالباً نلوطع على الأرصفة، ولا نجيد الهوشلة في الشوارع مثل الأوروبيين، ولا الهوترة، كيفما كان، مثل الأميركيين، الذين رأينا شراذم من شبانهم وفتياتهم المهوترين في مختلف أنحاء أوروبا.

وفي باريس ـ مربط خيلنا ـ سألنا مستخدماً في الفندق، عن محلات لافاييت للثياب الفخمة، فحدفنا المستخدم إلى دكاكين هزيلة لا يطرقها سوى شباشلة البشر. لعلَّ تصرفاتنا ومظاهرنا البريئة كانت أقرب إلى الشبشلة، مما هي إلى الأناقة.

أما في روما، فقد طلبت من مدير الفندق، عندما ودعته، أن يقول رأيه فينا في صراحة، قال: «هنيئاً لكم أصالتكم، أنتم اللبنانيين! إذ ما زال في مقدوركم أن تفرحوا وتمزحوا وتضحكوا ملء أفواهكم، وأن تُصلّوا في السر والعلانية، وأن تتأملوا».

وفي مدينة فلورنسا، أحد مقالع عظماء الرجال في الدنيا، مدينة ميكال أنجلو ورافايل ودانته ومكيافللي وليوناردو دا فنشي وروسيني وكاترين دوميدسيس وسواهم.

في تلك المدينة تغدّينا في مطعم ازدانت جدرانه وسقوفه برسوم رائعة الجمال، لكننا لم نستطع أن نفهم مما يتألف الطعام الذي تناولناه، فتوحوحتُ، عندئذٍ، على شيش لحم مشوي في سوق الخان.

وسوق الخان، هذا، هو مكان غير مأهول في خراج حاصبيا، تقام فيه سوق شعبية، كل يوم ثلاثاء، حيث تعرض للبيع جميع الحاجات تقريباً، ويؤُمّه عدد كبير من سكان القرى المجاورة.

ولسوق الخان معانٍ ومغازٍ وألوان فولكلورية لا تلاحظ في مكان آخر.

وقد خطر لأحد الناس أن انتحى مكاناً في أحد أطراف السوق، يشوي فيه اللحم في الهواء الطلق، ويبيع شيش اللحم المشوي بربع ليرة، ثلثه لحم وثلثه شحم والباقي بصل وبندورة.

ويشاهد هنالك، غالباً، عدد من الناس حول بائع اللحم المشوي، وفي أيديهم أرغفة الخبز، واقفين ومقرفصين، ومقنبزين على الحجارة المرمية، هنا وهناك، أو مبشّطين حول النار يتلهمجون على رائحة الدهن المحروق، ويتضمخون بدخان عسيس نار الحطب المحروق، إلى أن يأتي دَورهم.

* * *

سيدة إنكليزية في لندن اشترينا منها جزدان جلد، وأرادت أن تعرف أي دين نعتنق، فرويت لها قصة مواطنها المبشر الإنكليزي الذي جاء إلى لبنان، في القرن الماضي، مبشراً بالمذهب البروتستنتي، وحلَّ في إحدى القرى داعياً الناس إلى الخلاص، في طريقته الجديدة، فلم يُقبل أحد إليه.

فعمد أخيراً إلى اكتساب قلوبهم، عن طريق جيوبهم، وأخذ يدفع إلى كل واحد منهم، يقبل دعوته، ليرة إنكليزية ذهباً كل شهر.

عنـدئذٍ تكاثر عدد المؤمنين به والمتحمسين لدعوتـه. فاعتقد أن بذرة الإيمان نبتت في قلوبهم، وإن حقل الرب أثمر في نفوسهم فكفَّ عن دفع الليرات. مستعيضاً عنها بالصلوات والابتهالات.

فإذا المؤمنون الجدد ينفكون عنه واحداً بعد الآخر وعندما سألهم عن سبب فتور حرارة الإيمان في قلوبهم أجابوا: «أنكْلَزتلّنا أنكْلزنالك. بطّلت تأنكلِزلنا بطّلنا نأنكلزلك».

وأضفت لبائعة الجزادين: «ونحن يا سيدتي من الذين تأنكلزوا في ذلك الـزمان، عن يد جدك أو خالك أو عمك، ذلك المبشر الإنكليزي الخالد الذكر. لكننا ما زلنا متأنكلزين إلى تاريخه. فصار لنا طول وفرق حساب قـديم، عند بني قومك. أيتها السيدة المحترمة».

فحاولت الإنكليزية أن تضحك وبدا لنا أنها لا تحسن الضحك. ربما لأنها لم تضحك منذ وقت بعيد. وكل مـا استوفيناه من حقوقنا القديمة عند الإنكليز، ثمن أنكلزتنا لوجه الله منذ أكثر من قرن من الـزمن، ان سيدتنا هذه تكرّمت علينا باسمها الكريم - تشرفنا يـا مس روزبراون - أما مراعاتنا في ثمن الجزدان فغير واردة، لأن «بزنس إز بزنس».

فلعـلَّ الإنكليز خسـروا امبْراطـوريتهم عنـدمـا بـطّلوا يؤنكلزوا.

رفيق الطّريق ما هو صديق

منذ نحو نصف قرن. ودّع شاهين فاعور والديه مهاجراً إلى المكسيك. ومرّت به السفينة في مرسيليا فنزل يتفرّج على أهلها. ورأى رجلين يتشاجران والناس يمرون ولا يتدخلون ولا يتمحشدون ـ ولا من يحزنون.

فدبّت النخوة اللبنانية في عروق الرجل، وأسرع يمسك الواحد ويدفع الآخر، ويقف بين الرجلين، ويشتم الإثنين معاً ـ في العربية طبعاً ـ حتى أكل ثلثين القتلة.

أخيرا، حضر رجال الأمن واستاقوا الرجلين واستاقوا شاهين معهما إلى المخفر، حيث ما لبثوا أن أفرجوا عن الرجلين، واحتفظوا به إلى اليوم التالي لعدم وجود ترجمان، ولكون رجال الأمن لم يكن في وسعهم أن يفهموا لماذا يتدخل رجل غريب في ما لا يعنيه.

وعندما أفرجوا عنه في اليوم التالي كانت السفينة أقلعت، فانقطع شاهين في مرسيليا، حتى تيسّرت له العودة إلى لبنان.

ولكن، لهذه القصة ذنب، يقول شاهين إنه، بعدما خرج من السجن دخل مطعماً وتغدّى بفرنك واحد، ثم قضى حاجته في أحد المنعطفات، فغرّموه فرنكين، فودّع مرسيليا ببيتين من الزجل:

عشنا بفرنسا يومين
وعرفناها عالحالين
بتتغدى فيها بفرنك
«وبتقضيها» بفرنكين

* * *

كانت رحلتي، مؤخراً إلى فرنسا مع فريق يضم شتيتاً من اللبنانيين، وكانت دليلتنا في قصر فرساي شابة فرنسية شَموس قطعت شباحاتها وبرطعت أمامنا في أروقة القصر، فقصّرنا عنها، ورحنا قطايع، فضاع بعضنا وتشرذم البعض في عجيج خلق الله المتدافشين بين التحف والتماثيل والأعمدة المتوّجة.

ووجدت نفسي مقرفصاً بين قوائم حصان عظيم يتقعقر فوق صهوته لويس الرابع عشر، فناديته: «يا صاحب الجلالة، أين كنت تقضي حاجتك في هذا القصر الذي لا بيت خلاء واحداً فيه؟».

ثم تلهمجت بنصيحة إلى زائري قصر فرساي أن يعصمصوا!

وتذكرت ما قيل عن أحد فلاسفتنا، عندما كان في نيويورك، وأراد أن ينتقم من المدنيّة، فعقد النية على أن يقضي حاجته في حرّية - على الطبيعة - ربي كما حررتني - واستأجر سيارة بأربعين ريالاً إلى خارج نيويورك حيث تمتع بقضاء حاجته في الهواء الطلق، وهو يتأمل!

وعندما صحوت من تأملاتي هذه وجدت أني أنا الآخر انقطعت بين يدي حصان لويس الرابع عشر، وأن جميع رفاق سفرتي تجاوزوني وأهملوني، فتذكرت مثل عمي بو ضاهر: «رفيق الطريق ما هو صديق»، وتَولَّيت أمري بنفسي.

لا تشتري حماره وأمّها بالحاره!

أبو خليل طشطش، فقير إلى رحمته تعالى، لكنه غني جداً بمأثورات الكلام.

سمعت رجلاً يشكو إليه أمره، قال إنه قلَّما عاد إلى بيته ووجد زوجته فيه، وعندما تعود، تقول إنها كانت عند أمها.

فقاطعه أبو خليل: نسيت شو قال المثل: «لا تشتري حماره، وأمها بالحاره، بس تفلت الواحده، بتروح لعند الثانيه».

إما أن يموت الحمار
وإما أن يموت الملك

يُحكى أن أحد ملوك الزمان، كان عنده جحش كرّ ابن أتان، ربّاه في قصره مربى الدلال، وكان يطلقه بين جلاّسه فيدخل إلى الديوان أمام الوزراء والسفراء والأعيان وينهق ويتمطّى بدون استئذان، فينشرح خاطر الملك ويُشرق وجهه بالرضا والاستحسان.

وكان بعض كبار الحاضرين، من السادة المتملّقين، يبادرون إلى القول:

ـ خزاة العين عن هالجحش، مش ناقصو إلا يحكي.

ـ يا عمي! جحش الملك ملك الجحاش، وكل شي على بابو بيشبه صحابو.

ـ لازم مولانا الملك يحط معلم خاص يعلم الجحش يقرا ويكتب، يمكن يصير فيلسوف زمانو.

فوجدت هذه النصيحة قبولاً في نفس الملك وأمر بإحضار أحد كبار فلاسفة ذلك الزمان وطلب منه أن يعلّم الجحش القراءة والكتابة.

قال الفيلسوف: «هذا غير ممكن، لأن أفلاطون كبير فلاسفة الدنيا يقول: «الإنسان حيوان ناطق»، أما الجحش فهو حيوان غير ناطق».

فغضب الملك وأمر بشنق الفيلسوف، ثم استدعى أمير شعراء المملكة وطلب منه أن يعلم الجحش القراءة والكتابة.

قال الشاعر: «هذا غير ممكن، لأن الشاعر العربي يقول:

تعلّم يا فتى فالجهل عارُ

وليس بجاهلٍ إلاّ الحمار

فأمر الملك كذلك، بشنق أمير الشعراء، واستدعى أحد كبار رجال الدين وطلب منه تعليم الجحش القراءة والكتابة.

فقال رجل الدين: «هذا غير ممكن، لأن الله، سبحانه تعالى، خلق الإنسان على صورته ومثاله، ولم يخلق الجحش على صورته ومثاله».

فأمر الملك، كذلك، بشنق رجل الدين، ووقع اختياره، أخيراً، على معلم من إحدى المدارس الحكومية، فاستدعاه وطلب منه أن يعلم الجحش القراءة والكتابة.

قال المعلم: «عفواً يا مولاي، فأنا نفسي لا أقرأ ولا أكتب».

قال الملك: «وكيف جزت الامتحان أمام اللجنة الفاحصة؟».

قـــال المعلم: «ولكنني كنت أحـــد أعضـــاء الـلجنـــة الفاحصة».

أخيراً أمر الملك أن يُنادى في المدينة أن جلالته خصص مكافأة كبرى لمن يستطيع تعليم الجحش، فانبرى لهذه الغاية رجل شيخ عجنته الأيام وخبزته التجارب، ودخل وجثا وقبّل الأرض أمام الملك، ثم التفت صوب الحمـار وحيّاه بجـد ووقار.

فانبلج ثغر الملك عن ابتسامة عريضة وهتف: «إذن أنت تفهم لغة الحمير»!.

قال الرجل: «أجل يا مولاي، وها هوذا الحمـار يردّ التحية إليَّ بمثلها وذلك برمشة من جفنه وعطفة من أذنه، فليطمئن بال سيدي الملك، إنما لاخفاكم الأمر، أن القضية تـأخذ بعض الـوقت، وتستوجب بعض المصـاريف لتأمـين الأغذية والأشربة التي تشحذ ذهن الحمار وتساعده على الحفظ والاستظهار كالجوز والصنـوبر والـزنجبيل وشـراب البيلسان والعسـل والزبيب والخـولجان وغـير ذلك، وأمـلي بالله، إذا سلمتني هذا الحمار الآن، أن أعود به إليك بعد خمس سنوات وشهادته في رقبته.

فأمر الملك بفتح اعتماد خاص لهذه الغاية وضعه تحت تصرف الرجل، وسلّمه الحمار، فجرّه وخرج به.

وكان بعض أصدقاء الرجل قد تجمعوا خارجاً وقلقت أفكارهم عليه، فإذا به يخرج والجحش وراءه ويخبرهم بما حصل.

قالوا: «ولكنك رجل مجنون، ماذا تفعل بعد خمس سنوات؟».

قال: «بعد خمس سنوات، إمّا أن يموت الحمار، وإمّا أن يموت الملك أو أموت أنا».

اللّي ما بيتعلّم إلّا من كيسو بيموت قبل أوانو

يُحكى أن رجلاً شكا من ألم في ظهره وأراد أن يرتاح، موقتاً في بيته، فجاء أهل القرية يزورونه، قال أحدهم: «سلامتك يا بو نصّار، هذا وجع الظهر ثلثو خَتْيَره، وثلثينو قهر، بيكبر الزلمي وما بيحطها واطيه، وحرمتو بتظل تحكّ عالجرح حتى ينزل الدم».

فقال رجل آخر: «لا، لا، وجع الظهر من خيانة الدهر، الكريم بيموت من وجع جيبتو، يمكن بو نصار محشور وكاتم علّتو».

ودخل رجل آخر وتبرّع بنصيحة، قال: «هذي «برقه»، بو نصار بيلزمو مغطس بارد».

وجيء بخلقين ملأوها ماءً بارداً وضعوا الرجل فيها لمدة ساعتين، وعندما أخرجوه تبين أن مفاصله تيبّست، فأشارت إحدى العجائز أن يدهنوا جسد الرجل بزيت حار، فدهنوه حتى تقزز جلده.

وصار كلّما قدم قادم تبرّع بنصيحة: كاسات هوا على ظهره، لزقة خردل على بطنه، «كيّ» فوق باب بدنه، شربة خروع، شربة دود، جراب حقنه وتحميله بدبس وما أشبه ذلك. وكانت اللياقة تقضي أن تنفّذ جميع هذه الوصفات إكراماً لخواطر أصحابها.

ومع تكرار الوصفات تكرّرت النكبات: بقبق ظهر بو نصار وفقفل بطنه وانحلّت مفصّلات جسمه، واصطكت أضراسه وضاقت أنفاسه، فقلق عليه جلّاسه واستدعوا كاهن الرعية ليتداركه بنصيحة دينية قبل انتقاله إلى الأخدار السماوية.

وعندما حضر الكاهن، اختلى بالرجل وقال له: «لا بد أن تكون ارتكبت في زمانك خطايا مميتة، حتى ابتلاك الله بهذه العلل المقيتة».

قال الرجل: «خطيئتي الوحيدة، يا محترم، أنني سمعت نصائح الناس، ونسيت نصيحة أمي قبل وفاتها: «اللي ما بيتعلّم إلا من كيسو بيموت قبل أوانو».

مِنْ دَوّرها تْطيشْ

كنت في المطار، وقررت أن لا أعود بدون قصة جديدة، فتغلغلت بين خلق الله المتدافشين، اتنصّت لأقوالهم، وأتلقّف بعض أخبارهم.

قرب المدخل، كاهن عرمرم، كان يجلس متقلقزاً، كأنه يوشك أن يخسر موعد جنازة لأحد الأغنياء، وحول الكاهن بضعة رجال، ذكّرتني قسمات وجوههم بالصخور المشرئبة بين كفرحونه وجزّين.

وكان بين هؤلاء رجل غشمشم ـ شلقه من جبل ـ فتح فاه، وتكلم من بطنه، قال: «تسع سنين بأميركا، وطنعشر سنة ببلاد الناورك، وخمس سنين مدري وين، شو قولك يا محترم، بعدو بيعرف يحكي عربي؟».

فتحلحل المحترم قليـلاً، وقال: «حسب ظني، خيّـك حمار، عقلو ما بيوسع لغتين، إذا كان حفظ الانكليـزي، بيكون نسي العربي».

فسأل المتكلم من بطنه: «يا تعتيري! كيف بدنا نتفاهم معو؟».

أجاب المحترم: «مِندَوِّرها تلطيش».

عَلاماتُ آخِرِ الأَوقاتْ

بينما كنت أصعد إلى مجلس الجنوب، تعطّل بي المصعد، فجأة، بين طابقين، وكان معي فيه امرأة وكاهن، ولم يكن أحدنا يعرف الآخر.

فرسم الكاهن، بأصابعه الثلاث، إشارة الصليب على صدره، وسكت. بينما فتحت المرأة حقيبتها، وانصرفت إلى إصلاح زينتها امام مرآة المصعد، وكأن لم يكن شيء.

فقلت مداعباً: «يا محترم! ما هي العلامات على آخر الأوقات»؟ اجاب: «حكومه خربانه... وحدود فلتانه... وقلوب مليانه».

ثم التفت المحترم إلى المرآة المتبرّجة امام المرأة، واستطرد: «وإذا خلّصنا الله، بخير، من هذه العلقة الملعونة ، نعود إلى البحث عن سائر العلامات، على آخر الأوقات».

وسّع نْوابك بيكشر واصْحابك!

الصديق أبو ذيب فشفش يثق بي ثقة عمياء ويأبى أن يستشير أحداً غيري في أموره الخاصة، ولأنه منحني ثقته الغالية، فهو لذلك «يقلّدني جميله» كأن ثقته بي جعلتني وزيراً، سامحه الله.

واستناداً إلى ثقته يستوقفني أحياناً في الشارع، أو يتصل بي هاتفياً، أو يشرّفني بزيارة، مع السيدة أم ذيب، ليأخذ رأيي في الباذنجان البلدي هل يسبب الارتخاء الجنسي، مثلاً، أو هل قرامي الملفوف تشفي من ريح السداد، وهل الاسكندر ذو القرنين مسلم أم نصراني، وغير ذلك.

في المقابل يمدّ أبو ذيب حديثاً مضمونه نصف أوقيّة من اللحم في دست برغل، وعلى عبدكم الفقير أن يهضم دست البرغل ليستخلص منه قليلاً من اللحم، بيد أني، مع ذلك، استطعت أن أستخلص من أحاديث الرجل بعض الطرائف:

ـ الحرذون، يا أستاذ، حين يرى حيّة، يخاف أن تبتلعه، فيعمد إلى عود يقبض عليه بفمه، حتى إذا أدركته الحية

وحاولت ابتلاعـه تعذّر عليهـا ذلك، بسبب العـود في فم الحرذون، فينجو بهذه الحيلة.

ـ الدجاجة، يا أستاذ لها جنـاحان ولا تـطير، بسبب ضعف إرادتها، ولو أرادت لكان في إمكانها أن تطير.

ـ الزلمي، يا أستاذ، بكل الدنيا يركب على الحمار إلاّ في بلادنا، أحياناً يركب الحمار على صاحبه.

ـ الحرمه، يا أستاذ، حـرامي إن خوّنتهـا، وأجير إن أمّنتها، وبستان إن صوّنتها.

أمس جاءَني الأخ أبو ذيب عند الصباح، وبسبب ثقته التامة بي دهمني مبكّراً يستشيرني في أمرٍ هو غاية في الأهميّة، قال:

ـ أم ذيـب ـ أنت كبير القدر ـ وزّم بـاهم إجرهـا، أخذناها لعند الحكيم، قال، معها مرض وراثي اسمو «مرض الملوك»، ولك يا عمي! منين إجاها مرض الملوك؟ أبوها كان مكاري وأبو أبوها كان نوري اندبوري، ومِين كلّف حضرتك تكشف حسب الحرمه ونسبهـا؟ بدون ملوك مشّ قـادرين نهدّي رأسها.

رد الحكيم، قـال: «هذا مـرض الملوك سببو حمـوضه بالبول» لا، لا، هذي ألعن وألعن، كل شي إلو حدود، هالتغميس برّات الصحن مش عاجبني، أنا بوذيب والناس بتعرفني.

مسكنا الحرمه وجبناها عالبيت، حموضه ما حموضه، أنا ما بفهم، قالوا: «الكردي نط الحيط، هذا الكردي وهذا الحيط»، هاتي شوية بول حتى نفحصهم.

بلا طول سيره، ذقنا شوي، طلع يا أستاذ، وحياة شرفك حامض حامض، بيشحرق الزلاعيم، بدّي أعرف كيف عرف الحكيم إنّو حامض من بعيد لبعيد...».

ولما كنت، أحياناً، أفهم بالإشارة، خشيت من ذيول هذه الاستشارة، فأزمعت على انتحال فقدان الجدارة، مهما كانت الخسارة ـ لئلا يركب الحمار أخيراً على صاحبه ـ وقاطعت الأخ أبو ذيب وقلت في حرارة: «ولكن يا أخ بو ذيب، صدقني أنني فقدت ذوقي منذ شهرين وصرت لا أميّز الحامض من الحلو، لذلك، لا أقدر أن أقدّم إليك أي خدمة في هذا الموضوع».

ورحم الله عمتي هندومه التي كانت تقول: «اللي بيخلط حالو مع النخاله بياكلوه الدجاجات».

مَا يزرعُه الإنسان إيّاه يحصُد

عندما أراد السيد المسيح أن يعلّم تلاميذه بأن الإنسان لا يتبرر أمام الله إلا بأعماله، ضرب لهم مثلاً:

«إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بين لصوص، فعرّوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت، وحدث أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وأعرض عنه، وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله، ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه - والسامري بنظر اليهود نجس ومنبوذ - ولما رآه تحنن وتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً واركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به، وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتنِ به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك».

وكما فعل السيد المسيح، كذلك، فعل قبله معلم آخر من معلمي البشرية «الواحد المبارك» بوذا، الذي قال إن الناس كالأولاد يحبون سماع القصص ولا يفهمون الحقائق إلا بالأمثال، ومما جاء في كتاب «انجيل بوذا»، أن «الواحد

المبارك» ذهب يستجدي طعاماً من أحد البراهمة، فقال له هذا: «أليس من الأفضل أن تفلح وتزرع مثلي وتأكل خبزك بعرق جبينك؟».

أجاب الواحد المبارك: «اعلم أيها البرهمي أنني أفلح وازرع مثلك».

فقال البرهمي: «واين هي، إذن، ثيرانك وحبوبك وسكة الفلاحة؟».

أجاب بوذا: «الأيمان هو الحبوب التي أزرعها. والعمل الدائب هو الماء الذي يسقي حبوبي وينميها، والحكمة هي سكة حراثتي، والعقل هو الذي يوجه خطاي، وبذلك أجني ثمر الخلود».

فالقصص والأمثال هي ألصق أنواع الأدب بالجماهير وأقربها إلى مفاهيم الناس، وقد عثرنا مؤخراً على قصة شعبية جميلة ذات مضمون أخلاقي، تتلاءم مع أسلوب جماعة من المؤمنين، في طريقة تلقين أبنائهم بعض الفضائل عن طريق الدين، أو ما يشبه الدين، وقد أوردناها هنا، كما رواها الراوي لنا، كي لا تفقد براءتها، لأن قيمة القصة في أصالتها:

اتفق أن ثلاثة من الرجال داهمتهم أمطار غزيرة، فيما كانوا عائدين إلى قريتهم، فالتجأوا إلى مغارة قريبة، وطمت السيول عندئذ فجرفت صخراً كبيراً ألقته على باب المغارة

فسدّت عليهم منافذ الخلاص. قالوا حينئذ: «فليضرع كل واحد منا لله تعالى، حسب أفعاله ونواياه لعل الله يرأف بنا».

فقال الأول: «يا إلهي، أنت تعلم ولا أحد غيرك يعلم، أني عامل آكل لقمتي بعرق جبيني، وأشتغل يومياً عند أحد الناس، فأقبض أجري عند المساء وأشتري به طعاماً لأبي وأمي ولي. وأنت تعلم يا إلهي، أن والديَّ عاجزان ومريضان، ويحدث أحياناً أن أجدهما نائمين عند عودتي في المساء، فاتهيّب من ايقاظهما وأقف منتظراً حتى يستيقظا، فأضع الطعام أمامهما حتى يأكلا ويشبعا، فآكل أنا عندئذ مما تبقى عنهما وأطلب رضاهما وآوي إلى فراشي. وأنت تعلم يا إلهي، ولا أحد غيرك يعلم، أنني أقوم بعملي هذا بكل طيبة خاطر لأن «رضا الله من رضا الوالدين».

ولم يكمل الرجل كلامه حتى تزحزح الصخر عن باب المغارة قليلاً بحيث يدخل النور إلى المغارة ولا يستطيع الرجال الثلاثة أن يخرجوا منها.

ثم قال الرجل الثاني: «يا إلهي أنت تعلم ولا أحد غيرك يعلم، أنني معاز، وحدث أن استأجرت أجيراً لرعاية ماعزي، غير أن هذا الأجير، بعد أن عمل في خدمتي زهاء نصف سنة، ذهب ولم يعد، وبقي أجره في ذمتي، فانتخبت معزاة من ماعزي يعادل ثمنها قيمة أجر الأجير، ودمغتها بعلامة فارقة واحتفظت بها بين ماعزي لحساب أجيري هذا.

ومرت سنة ولم يعد الأجير، فعشّرت المعزاة وولدت معزاة أخرى، ثم صارت المعزاة تعشر وتلد، ومثلها بناتها وحفيداتها التي كانت تتوالد وتتزايد على مرور السنين، وكنت أدمغها جميعها بالعلامة الفارقة وأحتفظ بها بين ماعزي.

وبعد أكثر من عشر سنوات عاد الأجير وقال لي: «إذا كنت تتذكر، وتريد أن تبرىء ذمتك معي فأعطني ما يطلع من خاطرك».

فقلت له: «أنت تعرف موقع الحظيرة فادخل إليها واخرج منها كل رأس من الماعز مدموغ بعلامة فارقة فهو لك». ولم يمضِ سوى برهة وجيزة حتى أصبح أكثر من نصف القطيع خارجاً، فأمرت للأجير بعصا «وزوادة»، ودعوت له بالسلامة. وأنت تعلم يا إلهي، ولا أحد غيرك يعلم، أنني فعلت كل ذلك عن طيبة خاطر».

ولم يكمل الرجل كلامه حتى تزحزح الصخر ثانية ولكن إلى درجة لا تكفي لخروج الرجال الثلاثة من المغارة.

فقال الرجل الثالث: «يا إلهي أنت تعلم ولا أحد غيرك يعلم أنني وحيد لوالديَّ، ولي ابنة عم توفي والداها وكانت لا تزال طفلة، فضمّها والدي إلى عائلتنا وربيت في بيتنا كأنها شقيقتي. وعندما شبّت قال والدي: «لنأخذن ابنة عمك زوجة لك، فهي جميلة ومهذبة وتحملنا في آخرتنا».

وأنت تعلم يا إلهي ولا أحد غيرك يعلم، بأنني كنت

أشعر أن ابنة عمي هي من لحمي ودمي ومثل أختي، ولا قبل لي باتخاذها زوجة لي وإن كانت سترتها واجبة عليّ ـ إذا لزم الأمر ـ والستر عليك يا ستار يا أرحم الراحمين، ولكنني كنت أنا الآخر مهذباً لدرجة أنني لم أقدم على مخالفة والدي.

وهكذا عقد لي على ابنة عمي وصارت حليلتي على شريعتك اللهم وعلى عيون الناس، إلا أنني اتفقت سراً مع ابنة عمي على أن تبقي علاقتي معها علاقة شقيق بشقيقته، إلى أن تفعل يا إلهي ما تراه مناسباً. وبعد خمس سنوات توفي والدي، فجمعت بعد دفنه، كبار رجال عائلتنا وأطلعتهم على الحقيقة وقلت لهم إن كل ما تركه والدي من أرزاق وأموال ومواشٍ هي مناصفة بيني وبين ابنة عمي.

وبعد أقل من سنة عُقد على ابنة عمي لرجل من أبناء عائلتنا، فابرأت ذمتي معها كما وعدت واتخذت بعدئذ واحدة من بنات قريتي زوجة لي، «وأنت تعلم يا إلهي ولا أحد غيرك يعلم أنني فعلت ما فعلت عن طيبة خاطر».

ولم يُنهِ الرجل كلامه حتى تدحرج الصخر عن باب المغارة، فخرج الرجال الثلاثة منها وعادوا إلى بيوتهم سالمين.

ميثاق خبز وملح

وهناك قصة شعبية ثانية لها نكهة جبال لبنـان ورائحة فحمه وحطبه، يقول الراوي:

في أيام أبائنا وأجدادنا، في زمن الخير والبركة ـ كذا ـ ظهرت في إحدى قرانا النائية ظاهرة غريبة: فسدت الخميرة، عجين القرية لا يختمر، خبزها صار بلا «حيل»، حدثت عدة مناقشات ومشاحنات حول تنانير القرية، أرغفة الخبز أخذت تتفتت وتتساقط عن «الكارات» قبل وصولها إلى «الصاجات».

ماذا حدث للخمائر حتى فسدت؟

قال قائل إن حجر مطحنة القرية أصبح «حافيـاً». . . «فنقشوه».

وتكهّن ثانٍ بأن نوعية الملح المستعمل في العجين عاطلة: فأبدلوه.

وشكّ البعض أن عين القرية «ملعوب فيها»، فنظفوها.

ولكن دون جدوى.

في ذلك الزمان كان ما زال يعيش في القرية شيخ من أصحاب الرأي «والروية» عجنته الأيام وخبزته التجارب. فقال لمن حوله: «حققوا لي عن صاحب أول بيت فسدت خميرته وأحضروه إلي». وإذا برجل يتقدم ويؤكد أن زوجته كانت أول من لاحظت خميرتها.

فبحلق الشيخ به وقال: «يا ويلك من الله، خطيَّتنا برقبتك، قل ولا تكتم عنا شيئاً، من أطعمك خبزاً وملحاً فخنته؟».

فارتبك الرجل ووهنت قواه وقال: «المشحرجي الذي أبيع فحمه بالأمانة، كان قد دعاني إلى بيته وقال لي: يجب أن نتمالح قبل أن نتعامل فيصير بيننا «خبز وملح»، ولكن النفس أمَّارة بالسوء والإنسان مفطور على الخطأ، فاصفحوا عن جريمتي وها أنا ذاهب أبرىء ذمتي معه».

من عبيه الى بعقلين «كل كوع بقرش»

يحكى أن مرسلاً أميركياً أراد أن يأتي من بعقلين إلى عبيه، وأحب أن يستأجر فرساً فطلب صاحب الفرس أجرة مقدارها خمسون قرشاً، ثم سأل عن أجرة الحمار ـ على اعتبار أن أجرة الحمار أقل من أجرة الفرس ـ فقال المكاري «حسب الأكواع، كل كوع بقرش»، فاختار المرسل ركوب الحمار، ولو كان في ذلك بعض المشقّة، على أمل أن لا يكون عدد الأكواع كبيراً.

وأخذ الحمار يهبط بالسائح كوعاً بعد كوعٍ حتى وصل إلى وادٍ سحيق وأخذ بعد ذلك يصعد به كوعاً بعد كوع حتى وصل إلى قرية كفرحيم، ثم بدأ يهبط من جديد في طريق موعرة متعرجة، فكان المرسل لا يتمالك نفسه على الحمار فيضطر إلى النزول ثم إلى الركوب، وهكذا دواليك حتى وصل إلى مكان فيه جسر، وكان عدد الأكواع قد أربى على مئة كوع.

وهناك أراد المرسل أن يعرف اسم الجسر، فقال

المكاري: «إنه جسر القاضي يا سيدي»، فقال المرسل: «ولمن كان يقضي ذلك القاضي هنا، في هذا الوادي البعيد؟»، فلم يجد المكاري جواباً على هذا السؤال.

فقال المرسل: «أنا أعرف ذلك، إنه كان يقضي بين أصحاب الحمير، وبين الحمير الذين يركبون على الحمير، عندما يختلفون هنا على عدد الأكواع».

* * *

وجسر القاضي هذا بناه الأمير زين الدين القاضي أحد الأمراء التنوخيين في القرن السابع عشر، وقد وصفه الشاعر الشعبي خليل روكز بقوله:

«جسر القاضي وآثارو

من عمر بعلبك صاروا

حَودب تا تظل الأجيال

تدبدب من تحت حجارو»

ولهذا الجسر تاريخ مجيد، قيل إن الأمير زين الدين المذكور كان يتنزَّه يوماً، قرب النهر وإذ بامرأة تُشمِّر ثيابها لتعبر المخاضة، حيث بُني الجسر في ما بعد. وحين لاحظت المرأة أن بعض الأنظار تتّجه إليها أرخت ثيابها لتبتلّ صوناً لشرفها.

فما كان من الأمير زين الدين، حين رأى ما حدث، إلا أن أمر حالاً ببناء جسر في ذلك المكان لكي تتمكن النساء من

عبور النهر دون تشمير أثوابهن. وبذلك يقول شحرور الوادي:

يا جسر من بين الجسور بينعرف

بفضل قاضي العمَّرو الدهر

من أجل حرمه النهر بلَّل ثوبها

عمَّـرو حتى يحافظ عـالشـرف

القسم السابع

"مِن كعْبِ الدِّسْت"



مِن كعْبِ الدِّست

كان يحدث، في أيام حداثتي، أن يعرض أحد القرويين نعارة «قاورما» للبيع، فيقول ويؤكِّد ويُقسم بأحد الأنبياء أنه عبَّأها «من كعب الدست».

ولا شكّ أن القاورما، وهي من أشهى المأكولات الشعبيَّة، اختراع شعبي لحفظ اللحم مدَّة طويلة، ولاسيَّما في فصل الشتاء، وذلك قبل عهد البرَّادات الكهربائية.

وكانوا يصنعون القاورما، وهي قطع من الهبر مطبوخة بالدهن، في دست كبير. ثم يعبِّئونها بعد طبخها في نعائر من الفخار، فتبقى صالحة للأكل طوال فصل الشتاء.

ولما كان الهبر، وهو أطيب وأثمن من الدهن، يرسب في كعب الدست عند طبخه، لذلك كان القروي إذا تكلَّم عن جودة ما عنده من القاورما، يقول انها «من كعب الدست»، أي أن كميَّة الهبر فيها أكثر من كميَّة الدهن.

ثم صرنا نستعير «كعب الدست» في كلامنا عن المأثورات الشعبية، كقولنا «حكاية من كعب الدست» أو «خبرية من كعب الدست»، أو «تصريح من كعب الدست»، وما أشبه ذلك.

عُــذر أُقبحَ من ذَنْب

من أشهر مصطلحات الكلام على ألسنة الناس «عذر أقبح من ذنب» الذي جرى مجرى الأمثال. وهنالك حكاية قديمة عن أصل هذا المصـطلح ترقى إلى عصـر الخليفة هـارون الرشيد الذي نسج الأدب الشعبي حوله حكايات كثيـرة، ومنها هذه الحكاية.

يُحكى أن هارون الرشيد الذي اشتهر بالدعابة والمجون كان قد خصَّص مكافأة مقدارها مئة دينار لمن يأتيه «بعذر أقبح من ذنب».

وذاع الأمر بين الخاصَّة والعامَّة، واحتار القوم جميعاً، إذ كيف يكون العذر عن ارتكاب أي ذنب أقبح من ارتكاب الذنب نفسه.

وحدث أن خرج الخليفة الرشيد، بعد ظهر أحد الأيام، إلى حديقة القصر، حسب جاري عادته، واستلقى في مقعده الخاص، في ظلّ شجرة البيلسان، حيث أخذته سنـة من الكرى.

فنقدَّم حارس الحديقة، برفق، وقبَّل خدّ الخليفة الذي استيقظ مذعوراً وصرخ بالحارس: «ويحك أيها المجرم، كيف تجرّأت وقبَّلتني في خدِّي، بكل استخفاف وعدم تقدير لسوء العاقبة».

وامر الخليفة أن يُجلد الرجل مئة جلدة.

فقال الرجل بكل هذوء: «أرجو المعذرة يا سيدي، فقد ظننتك صاحبة الجلالة الملكة».

فثار عندئذٍ غضب الخليفة وقال: «إذن، أيُّها المجرم السافل، كنت تريد أن تعتدي على شرف الملكة، وهذا ما لم يتجاسر أحد قبلك حتى على التفكير فيه».

وأمر الخليفة أن يُعدم الرجل فوراً.

فابتسم الرجل وقال: «ولكن مهلاً يا سيِّدي، إن جوابي هذا ما هو إلا «عذر أقبح من ذنب»، وما دام «العذر» هذا الذي قدَّمته إليك قد أثار غضبك أكثر بكثير من «الذنب» الذي اقترفته معك أكون، إذن، قد قدّمت إليك «عذراً أقبح من ذنب»، حسب طلبك... فمُر لي إذن بالمئة الدينار، لكي يبقى كلام الملوك ملوك الكلام».

أهل الجاروفه، معروفه

من عادة أبناء المناطق الجبلية في لبنان اساءَة الظن بأبناء المناطق الساحلية. وقد يكون مَثَل «أهل الجاروفه، معروفه» من تشنيعات أبناء الجبل على أبناء الساحل.

فإذا التقى رجل من أبناء الجبل رجلاً آخر بادره بالسؤال: «من أين حضرة الأخ؟» فإذا كان من إحدى قرى الساحل أعرض عنه وظنَّ عليه بمجاملة... لأن «أهل الجاروفه، معروفه».

وأهل الجاروفة هم أبناء الساحل غير الموثوق في تعاملهم، حسب ظن أبناء الجبل. وقد يكون اختلاف أبواب الرزق وطرق المعيشة، بين أبناء الجبل وأبناء الساحل، قد أوجد تبايناً في العادات والتقاليد هو أصل هذا الرأي.

ففي القرى الجبلية ما يُسمَّى «العونة»، وهي تعاون أكثر أبناء القرية في أعمال تحتاج إلى أيدٍ كثيرة، وتتم العونة بفرح وإخلاص يقوِّيان أواصر الثقة والتلاحم بين أبناء القرى الجبلية.

والجاروفة المعروفة في القرى الساحلية هي شبكة لصيد الأسماك تكون طويلة وثقيلة ومشدودة بحبال من طرفيها إلى البرّ، يحملها قارب ويلقيها بعيداً في البحر، ثم يتعاون أكثر رجال القرية لجذبها، بالحبال من طرفيها، الى البرّ، مع ما في داخلها من أسماك. فإذا فرغوا من جرف الجاروفة وجلسوا لاقتسام الأسماك اختلفوا وتشاجروا، ربما بسبب اختلاف أنواع وأحجام الأسماك، وبسبب الفروقات في أسعارها.

لذلك، يُسيء الظن أبناء القرى الجبلية بأبناء القرى الساحلية، وهم يؤكِّدون سوء ظنهم بهم بقولهم: أهل الجاروفه، معروفه». أي أن التعامل مع أهل الجاروفة ، أي أبناء القرى الساحلية ـ غير مأمون العواقب.

خبز «بكماج» ولا لحم الدّجاج!

كما توجد تشنيعات ضد أبناء الساحل، هكذا توجد تشنيعات ضد القرويين، أبناء الجبل، الذين كانوا يعيشون في عزلة وقلّما نزلوا إلى المدينة وخبروا ضروب أسعارها وألاعيب تجّارها.

وكان القروي إذا حدث أن هبط يوماً إلى المدينة، وعبر أمام أحد المتاجر، هبَّ التاجر و«أهّل وسهّل» ورحب «بالأخ» أو «بالحاج» أو «بالشيخ»، ودعاه إلى الدخول، فيقبل القروي دعوة التاجر ويدخل مسلِّماً، ولا يلبث التاجر أن يُغري الرجل بالشراء مما عنده، فيبيعه الرديء بسعر الجيِّد.

وكان التاجر يبرِّر عمله، بينه وبين ضميره، بالمثل القائل: «خبز «بكماج»، ولا لحم الدجاج». أي، لا فرق عند القروي بين الجيِّد والرديء.

و«الكماج» هو الخبز الفرنجي، كما كانوا يسمّونه ـ والكلمة تركية ـ أمّا المثل فله حكاية تقول إن قروياً قدم إلى

المدينة ومرَّ أمام بائع خبز فرنجي وسأله ما هذا، أجاب البائع: «هذا كماج».

قال القروي في نفسه، لا بد أن يكون «الكماج» مأكولاً لذيذاً حتى أطلقوا عليه هذا الاسم العجيب الغريب... وبدون تردّد اشترى القروي «رغيف كماج»، دون أن يعرف حقيقته، وفتح زوّادته من الخبز المرقوق وراح يُغمِّس خبزاً مرقوقاً «بكماج»، على بركة الله.

وعندما رجع القروي إلى القرية وقدم القوم للسلام عليه. أخذ يحدِّثهم عن مشاهداته وانطباعاته في المدينة حتى وصل إلى خبر «الكماج» فأسهب في وصفه وفي لذة طعمه، فسألوه: «وهل يؤكل «الكماج» وحده أم مغمَّساً بالخبز».

فهزَّ الرجل رأسه وأجاب: «خبز بكماج... ولا لحم الدجاج»!

وصارت هذه العبارة مثلاً يقال في مَن لا يُميِّز بين الجيِّد والرديء.

إجاكْ مين يعرفك يا بَلُّوط!

الصديق المطران بولس الخوري من أسياد المجالس وناثري الدرر والنفائس. ومن مآثره الحميدة كتابه الصغير السمين «أمثال وأقوال مأثورة» الذي ضمَّنه مجموعة ثمينة من الأمثال الشعبية مع بعض حكاياتها. ومنه أقتطف هذه الحكاية:
يُحكى أن رجلاً من بر الشام - أي سوريا كما يسميها المصريون - كان ماراً في أحد شوارع القاهرة حيث التقى صديقاً مصرياً فعاتبه هذا بقوله: «إنكم ترسلون إلينا من بر الشام، مختلف أنواع الفاكهة، وهي جميعها ممتازة، ما عدا الكستناء الشامية التي بدأتم مؤخراً ترسلونها إلينا وهي غير جيدة».

فتعجّب الرجل الشامي وقال: «ولكن الكستناء لا تنبت في بر الشام!»

قال المصري: «إذن تعال معي فأُريك أين نباع الكستناء الشامية».

ومشى الرجلان إلى حيث كان رجل يجرّ عربة عليها عرمة من البلّوط يشويه ويبيعه وهو ينادي: «شاميّه يا كستنا».

فصاح الشامي: «ولكن هذا بلّوط، لا كستناء».

فنظر المصري إلى عرمة الكستناء المزعومة وقال: «إجاك مين يعرفك يا بلّوط!».

فجرى جوابه مثلاً إلى يومنا هذا.



حكمة الكتاب

وقعت سنة ١٩٤١ معركة ضارية بين جيوش الحلفاء والجيش الفرنسي، كانت ساحتها قرية إبل السقي، فتشتت سكانها كيفما وأينما قادتهم أرجلهم. وعندما استقرّت الأمور أخذوا يعودون أفواجاً وأفراداً، وكنت أنا واحداً منهم.

وحدث أن التقيت أحدهم عائداً إلى القرية، وهو فلاح بسيط، وسألته: «أين هربت ساعة المعركة»؟.

فانتفض وأجاب: «عليم الله أنا ما هربت، بس «انحدفت» صوب حاصبيا».

وعندما نشرت كتابي الأول «لئلّا تضيع»، جعلت جواب مواطني هذا حكمة كتابي المفضلة: من العار أن تهرب، لكن لا بأس إذا «انحدفت».

* * *

في نطاق بحثي عن حكايات العامة وعن مأثورات كلامهم نشأت بيني وبين بعض البطّالين عن العمل علاقات

ودّ متبادل، فاستوطوا حيطي وعملوني شغلتهم وعملتهم، يستوقفونني في الشارع ويكلمونني في الهاتف، ويسهرون عندي يتحدثون ويتجادلون، يبيعون ويشترون، يفصّلون ويلبسون حتى منتصف الليل.

لذلك، عندما نشرت كتابي الثاني «في الزوايا خبايا» جعلت حكمته المفضلة ما تعلمته من أحد شيوخ قريتي: «البطّال لا تعالجو بيعملك شغلتو!».

فما هي حكمتي المفضلة في هذا الكتاب؟.

* * *

كنت أريد أن أتكلم وحدي في مجالس الرجال، وأن لا يتكلم أحد غيري. فإن اعجابي بنفسي، من خلال أقوالي، يفوق اعجابي بكل مَن جالستهم وحادثتهم في حياتي من سادة الكلمة.

وكان عندي لكل مقام كلام، ولكل مناسبة قصة. شحنت ذاكرتي بمأثورات الأقوال التي تكفيني لحشرات الزمان ورحت أتلوها في كل مكان.

كان هذا شأني مع الناس، ولا بأس، حتى تفاقمت الأحداث في لبنان، في منتصف سنة ١٩٧٦، ففطنت إلى حكمة كتابي الأول « وانحدفت» إلى البرازيل.

واستويت في مجلسي ذات مساء، في مدينة سانبولو، لأبدأ

حديثي، فعاجلني أخ لي هاجر إلى البرازيل منذ اثنتين وخمسين سنة، بقصة، قال:

ـ اصطاد أحد الشبان حسّوناً حيّاً حمله ليبيعه في المدينة، فسأله رجل عن ثمنه. قال الشاب: «خمسون ليرة».

قال الرجل: «هذا الثمن الكبير لهذا الحسون الصغير؟».

قال الشاب: «ولكن هذا الحسون قيمته في لسانه، يغنّي ويتكلم بدون انقطاع من الصباح حتى المساء».

فاقتنع الرجل واشترى الحسون بخمسين ليرة.

وكانت عند الشاب دجاجة عتيقة لا تبيض ولا تصلح للأكل، فحملها في اليوم التالي إلى بيت الرجل الذي اشترى الحسون منه وعرض الدجاجة عليه.

قال الرجل: «وكم ثمنها؟».

قال الشاب: «مئة ليرة فقط».

فذهل الرجل، وقال: «ومتى كان ثمن الدجاجة مئة ليرة؟».

قال الشاب: «وهل نسيت أنك اشتريت الحسون مني أمس بخمسين ليرة، ألا تشتري الدجاجة بمئة ليرة؟».

فابتسم الرجل وقال: «ولكن الحسون يتكلم!».

فقال الشاب: «والدجاجة تسمع!».

وأضاف الشاب: «ألا تعلم أن جميع الناس، في هذه

الأيام يريدون أن يتكلموا، ولا أحد يريد أن يسمع، لذلك قلَّ عدد المستمعين وزاد عدد المتكلمين، حتى صار ثمن من يَسمع ضعفي ثمن من يتكلم».

هكذا، جعلت حكمتي المفضّلة في هذا الكتاب: أن أتكلّم قليلاً وأسمع كثيراً، وليردّ الله عني شر البطّالين، حتى لا يعملوني شغلتهم وعملتهم.

فهرس

القسم الأول

أدبُ العامّة في لبنان

القسم الثاني

المرأة مرآة الرجل

القسم الثالث

لكلّ مقام مقال

القسم الرابع
اصطلاحات الكلام عند العامّة

القسم الخامس

من كل وادي عصا

القسم السادس

جراب الزوّادة

القسم السابع

"مِن كعْب الدّسْت"